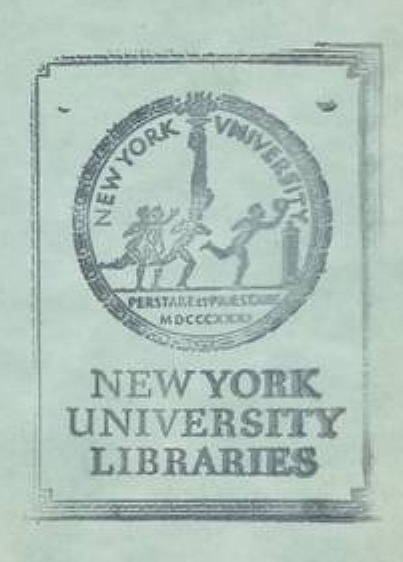
AL-BAGHDADI

SHAQAWAT BAGHDAD.


BOBST LIBRARY
3 1142 02881 7230

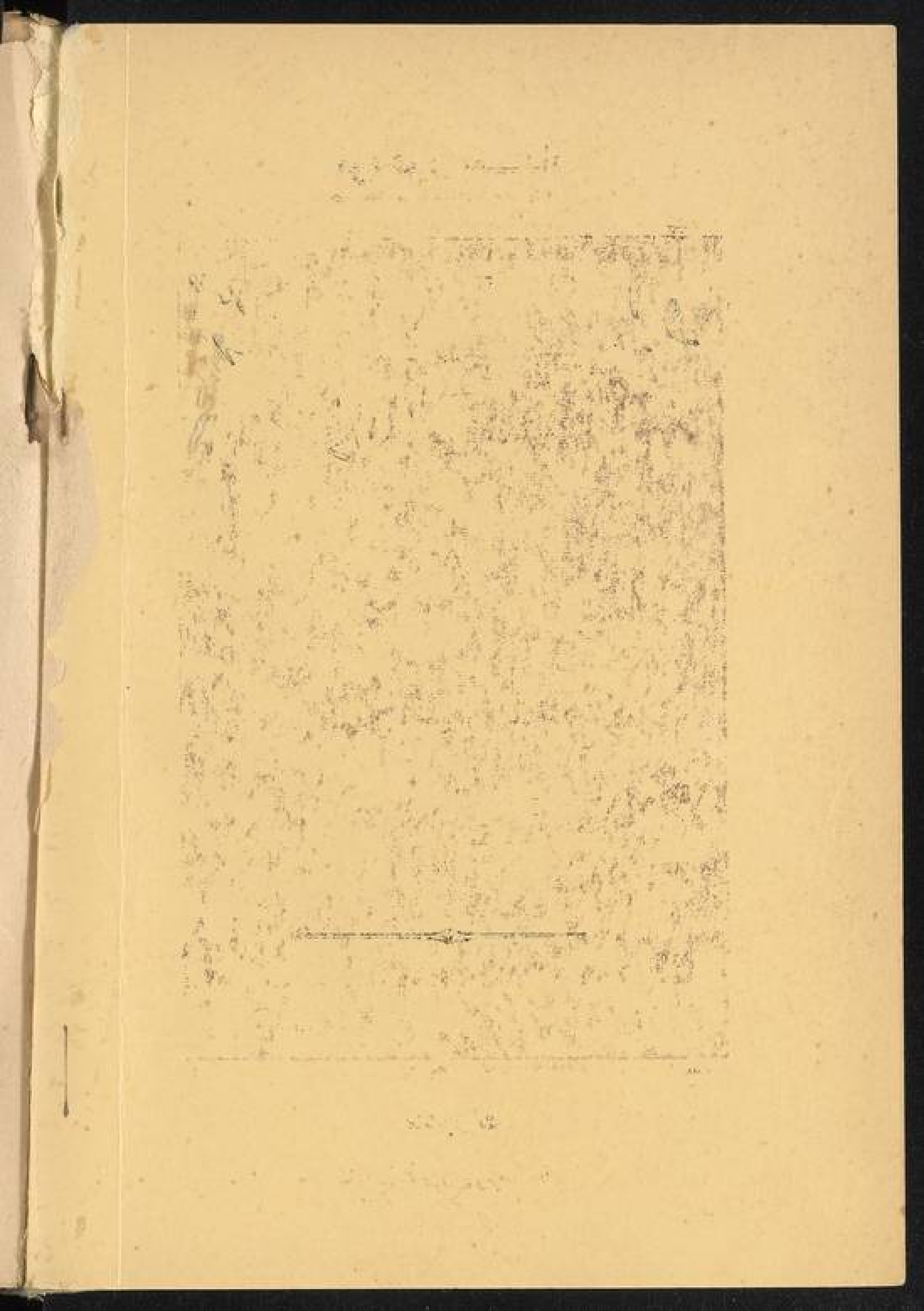

NEW YORK UNIVERSITY
PERSTARE ET PRAESTARE
MDCCCXXXI
NEW YORK
UNIVERSITY
LIBRARIES

فولكلور بغداد



منشورات

مكتبة النهضة . بغداد



شقاوات بغداد

الطبعة الاولى

١٩٦٢

مطبعة أسعد ـ بغداد

al-Baghdādī, Yūnis Sa'īd

/Shaqāwāt Baghdād/

فولكلور بغداد

"شقاوات" بغداد

في العصر الماضي

فدى لك يا بغداد كل مدينة
من الارض حتى خطتي ودياريا
فقد طفت في شرق البلاد وغربها
وسيّرت خيلي بينها وركابيا
فلم ار فيها مثل بغداد منزلا
ولم ار فيها مثل دجلة واديا
ولا مثل اهليها أرق شمائلاً
واعذب الفاظا واحلى معانيا

سعد بن محمد بن علي الهمداني

بقلم: يونس سعيد البغدادي

منشورات

مكتبة النهضة . بغداد

الاهـــداء

الى والـــدي الـــذي ادبني فاحسن تاديبـــي ..
واليها اينما ازمعت ، حيث لازلت في هواها شـــقيا !

بسمك اللهم ولك المجد

كنت قد كتبت في بعض الاعداد الصادرة سنة ١٩٥٧ من مجلة (قرندل) المحتجبة فصولا عن سجايا البغداديين وشمائلهم ، فلما احتجبت (قرندل) عاودت ذلك في الاعداد الاولى من جريدة (العهد الجديد) الغراء . واذكر بكل اعتزاز ان تلك الفصول كانت قد لقيت هوى من من نفوس القراء .. غير انني ولظروف خاصة الم بي ، انقطعت عن الكتابة ، فلما ازف موعد المهرجان ، انطلقت الم شعث أوراقي ، فما هزني منها غير هذا الذي جمعته بين غلافي هذا الكراس .. ذلك لانني بحكم كوني (ابن طرف) قد افنيت الصبا ، والقسم الاكبر مما تلا الصبا ، في منطقة (الفضل) ، فهي محلتي التي افتخر بالانتساب اليها ، ولهذا فقد لذ لي ان اكتب في هذا ، ولقد كانت هذه المحلة - ولا تزال - المنبع الثر الذي لاينضب من أفانين الادب الشعبي بما يواكبها من حياة بغدادية صميمة لم تشبها شائبة رغم تقلبات الايام .. ولاني بعد هذا عايشت (الاشقياء) ووقفت على سجاياهم وشمائلهم رؤية وسماعا ، فاحببتهم ، وما كان حبي ذلك الا لانني وجدت ان ظروف الحياة المرة ، وتردي الحالة الاقتصادية في الايام الاخيرة من الحكم العثماني

كانتا من جملة الاسباب المباشرة في ظهور الاشقياء ، وهذا هو الذي حملني على اخراج هذا الكراس .

وانني اذ أقدم هذا الكراس اكون سعيدا جدا لو تقبلته مني بغداد وهي عاصمة اروع الحضارات هدية متواضعة في عيدها الالفي المجيد .

يونس

الفتوة العربيـة

● ●

قبل ان نخوض في حديث الشـقاوة والاشقياء ، ولعلاقـة ما سنقوله عنهـم بـ (الفتوة العربية) والاسباب التي اوجدت من أجلها فلنتحدث عن الفتوة أولا .. لانني أرى ان حديثنا في ذلك هو المفتاح الذي سنفتح به باب الطلسم ، ونرسم من خلال فتحته وجوه تلكم الفتية التي استجابت لنداء التـاريخ في بعض ظروفـه الدقيقة ، ولان (الفتوة) نفسها قد صنعت شيئاً من هذا التاريخ حين ألمت به بعض ظروفه هذه .. ويكفي الفتوة اجلالاً انهـا كانت مظهرا رائعا من مظاهر حياة أسلافنا الشعبية .

فلقد كان العرب منذ جاهليتهم الاولى حتى يومنا هذا يطلقون على كل من تحلى بالشجاعة الادبية واداء الامانة ، وقرى الضيف ، وحماية الجار ، وغير ذلك من الصفات التي تبرز مكارم الاخـلاق كلمة (فتى) وقد قال في ذلك طرفة بن العبد :

اذا القوم قالوا من فتى خلت انني   عنيت فلم أكسل ولم أتبلـد

وتطلق هذه الـكلمة كذلك على الفتى الذي يتحلى بالصبر والتبصر وتحكيم الضمير فاشتقت منها كلمة (فتيا) التي تبين المشكل

من الاحكام ، فلما جاء الاسلام أقر الفتوة وفي ذلك يقول هادينـــا الرسول الاعظم (ص) ، انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق . كما جاء في الحديث ان قوما تفاتوا اليه أي تحاكموا اليـــه وارتفعوا اليه في الفتيا .. وهكذا كانت الفتوة تشكل أساسا متينا للرجولة الصادقة كل مع نفسه حتى عصر الرشيد ، حيث برز في المجتمع البغدادي آنذاك من لبى نداء التاريخ بشخص الامام جعفر الصادق (ع) الذي نظمها ودعا لها وتولى ادارتها ورئاسة شرفها .. واشترط للانتمـــاء اليها كل الشروط التي ألمعنا اليها في مكارم الأخلاق ، ولم يجعل لاعمار الفتيان زمـــانا محدودا ، فمن الخامسة عشر الى خاتمـــة المطاف .. وان السبب الذي جعله أن يصدر هذه الدعوة ويتولى حمايتها هو اندفاع الخلفاء والحكام بالظلم والطغيان ، وسرعان مالبى دعوته الناس ومنهم العلماء والادباء وصفوة المجتمع البغدادي آنذاك . وقد لقي (ع) عنتا من الرشيد وكذلك نجله الامام موسى الكاظم (ع)

ومن رجالات العصر العباسي الذين دعوا الى الفتوة واشتهروا في قيادتهـــا عندما داهمت بغداد الفتنة ، بسبب الحرب بين الامين والمأمون : سهل بن سلامة الانصاري الذي علق المصحف الشريف في عنقه وخرج يعض الناس ويدعوهم الى الأمر بالمعروف والنهـــي عن المنكر والعمل بكتاب الله وبسنة رسوله ، فبايعه على ذلك جمع غفير من أهل بغداد وأخذهم سهل بن سلامة بقيادته لقتال الشطار الذين أخذوا يمارسون السلب والنهب في اهتبال فرصة تلك الحرب

المشؤومة .

ومن زعمائها أيضا الامام أحمد بن حنبل (رض) وقد تجلى ذلك في موقفه المشرف من بدعـــة (خلق القرآن) .. فقد كان المأمون مشغولا في حرب الروم .. وان الذين كانوا يديرون دفـة الحكم في بغداد هم الفرس ، فابتـــدعوا خلق القرآن تمشياً مع سياستهم في اضعاف العقيدة في النفوس واحداث البلبلة في الرؤوس، فبلغ ذلك المأمون فكتب يطلب امتحان العلماء بخلق القرآن فأكره كثـــير على الجواب الا أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح فنفيا الى طرسوس غير ان ابن نوح مات في بعض الطريق ورجع الامام أحمد الى بغداد بعد أن صفح عنه المأمون ..

وازدهرت الفتوة أيما ازدهار في زمن الخليفة الناصـــر لدين الله ، حيث وضع لها نظـــاما خاصا ، وعين لفتيانها المراتب ، وألبسهم سراويل الفتوة البيضـــاء ، ولا يزال يلبســـها أبنـــاء البلد في الاحياء الشعبية ، وعين لهم رياضتهم التي يمارسونها وهي الفروسية واللعب بالكرة والصولجان والرمي بالبندق ، ففتن بهـــا البغداديون ، وتسارعوا للانتماء اليها ودخل فيهـــا العلماء والادباء وأكابر القوم ، ثم الملوك حيث ألبسوا الملك العادل ومن بعده أولاده السراويل البيضاء ولبسها أيضا الملك شهاب الدين صاحب غزنـــه والهنـــد من قبل الخليفة الناصر ، ثم أناط الخليفة قيادتهـــا الى

عبدالجبار بن يوسف البغدادي[1] ولقبه بلقب (شيخ الفتوة وحامل لوائها للناصر الخليفة العباسي) •

ومن زعمائها أيضا أقطاب الصوفية ومشايخها الاجلة من الاشراف والعلماء وفي طليعتهم الشيخ عبدالقادر الكيلاني والشيخ الجنيد البغدادي ، وعبدالرحمن بن أبي الحسن بن محمد الجوزي، وكان رجلا عالما جليلا يعظ الناس ويدفع بهم الى طلاب الجنة في مقاتلة الشطار وأهل الفتنة •

ولما استفحل أمر الاعاجم من الفرس والمغول وغيرهم هرب كثير من فتيان بغداد الى الشام ومصر فانتقلت بهم الفتوة الى هذين القطرين ، حتى ضمرت في بغداد ومسخت على النحو الذي كان معروفا في أواخر العهد العثماني ، وهو العصر الذي نعيشه الساعة مع هذا الكلام ، وسنرى ان كثيرا من صفات الفتوة قد بقيت عالقة في نفوس البغداديين ومن ضمنهم من لبوا نداء التاريخ في احدى ظروفه الدقيقة : وهم الاشقياء ••

---

(١) عبدالجبار بن يوسف بن صالح البغدادي شيخ الفتوة وربيبها ودرة تاجها وحامل لوائها بالمروءة والعصبية وانفرد بشرف النفس والابوة وانقطع الى عبادة الله تعالى بموضع اتخذه لنفسه وبناه ، فاستدعاه الامام الناصر لدين الله وتفتى اليه ولبس منه • خرج عبدالجبار في هذه السنة حاجا فتوفى بالمعلى ودفن به في ذى الحجة ـ شمس الدين الذهبي في وفيات ٥٨٣ •

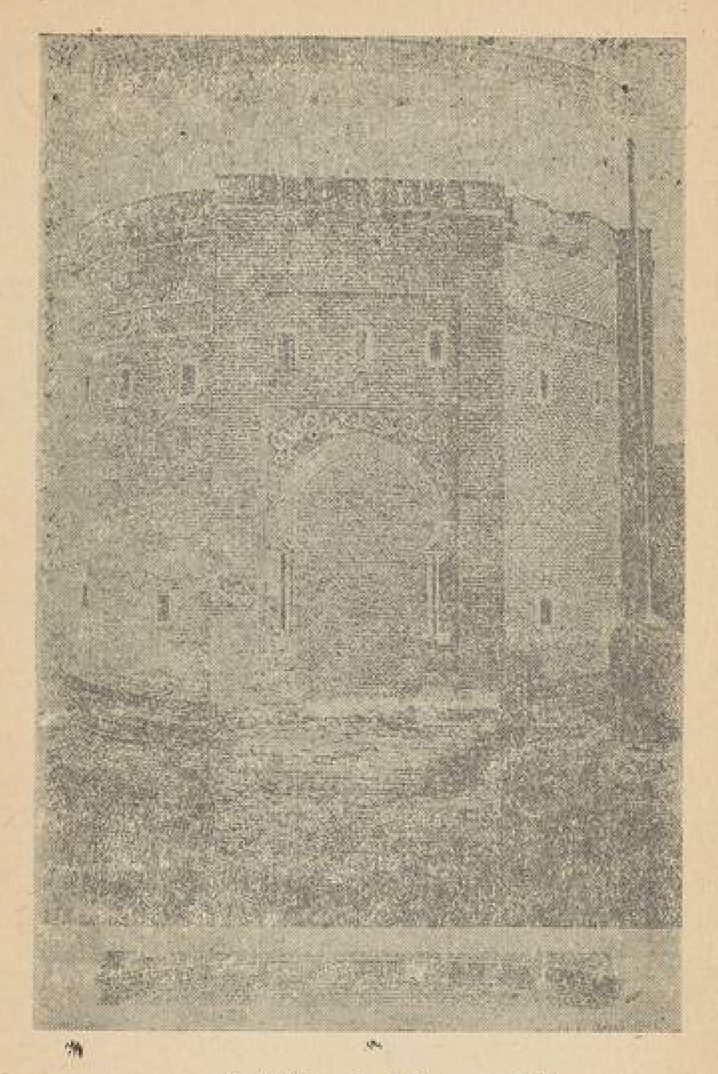
تعريف بالطلسم

● ●

الطلسم لغة : هو اللغز المستعصي حله على الفهم •• ولكنه في موضوع بحثنا هذا ، اسم الموضع الذي كان يلوذ به الفارون من وجه السلطات الاستعمارية من العصاة •• والاشقياء ! وقد كان هذا الموضع يوما ما ، حصنا من حصون الدولة العباسية التي شيدها الخليفة المنصور وجددها من بعده الناصر لدين الله سنة ١٢٢١م ، فلما دالت الدولة العباسية وما بعدها من دول اللون الاصفر ، وغير الاصفر ، اتخذته الدولة العثمانية مخزنا للعتاد والاسلحة ، ثم أخلته لانشغالها في تلك الحرب ، وحاجتها الى السلاح ، وعند ذاك أصبح الطلسم الملاذ الذي كان يلوذ به الاشقياء تخفيا عن الاعين ، وهربا من وجه الجندرمة الذين كانوا يقومون بحفظ الأمن ، وتنفيذ قوانين الحكومة وأوامرها يومذاك • ثم نسفته السلطات العثمانية عند سقوط بغداد سنة ١٩١٨ •

□●□

ويلفظ البغداديون كلمة الطلسم ، بكسر اللام بعد شدها الى الطاء المكسورة أصلا ، وللطلسم كان ينسب الأشقياء أنفسهم ،



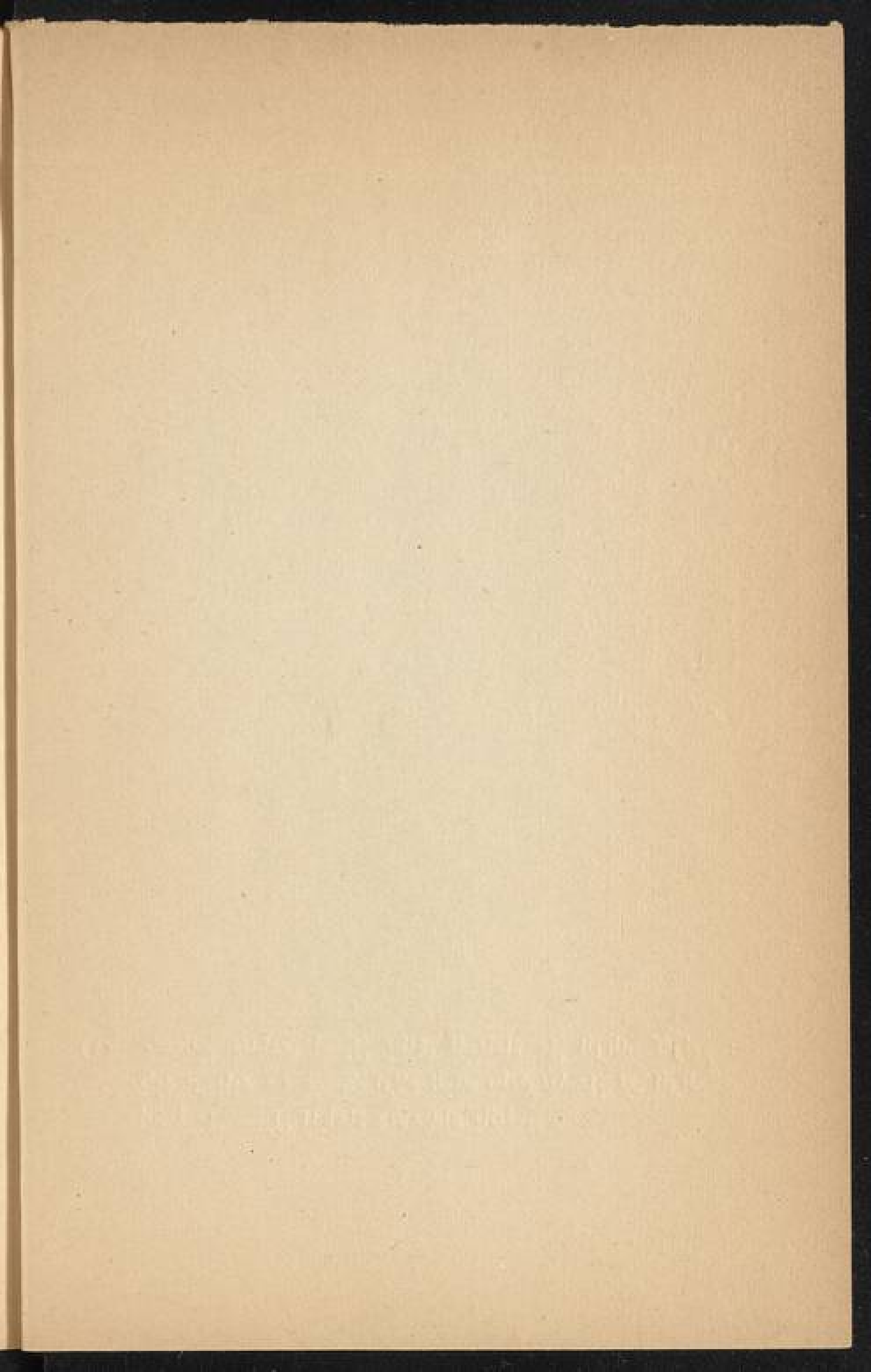
الطلسم ـ كان مأوى الاشقياء

فيقولون في مباهاتهم : (احنه أولاد الطلسم ياب)[1] ويقصدون بذلك انهم ال (خوش ولـد) الشجعان الذين لا يرهبون الموت ويلوذون بالطلسم •

ولم تأت مباهاة شقاوات بغداد بالطلسم اعتباطا •• فهو المحل الذي لا يستطيع أن يحل به سـواهم ، وذلك لما كان يكتنفه من غموض وابهام • وبما كان يدور حوله من أساطير وألغاز ، فضلا عما كان يصوره له الشقاة للناس تصويرا يبعث في نفوسهم الرعب والخوف في زمن كان فيه (الطنطل) هو المهيمن على عقول السواد ، فانهم ما داموا في مأمنهم هذا فلا تمتد اليهـم أيدي الجندرمة •• ولم يلجأ الاشقياء الى ذلك الا ليدفعوا عن أنفسهم شرة الفضول ، وحياة كهذه محوطة بالالغاز •• ألغاز النفس وألغاز الطلسم جديرة بالاعجاب ، وجديرة بالتسجيل أيضا !

---

(١) مصطلح بغدادي أصيل يطلق للمناداة على الوالد كقولهم : يابه او بابه •• غير ان اولاد البلد يطلقونها على غير الوالـد أيضا على سبيل المباهاة والاعتداد بالنفس •



عصر الاشـــقياء ..

كانت الاحوال العامة في العصر الذي نحن بصدده في بغداد ، ماضية قدما نحو الانهيار[1] وقد منيت بغداد الى جانب ما منيت به من ظلم الولاة الطغاة ، بضربات ماحقة من القدر أودت بحياة الالوف من رياحين المجتمع البغدادي سنة بعد سنة ، حتى انتشر الذعر وعم الهلع بانتشار المجاعة وهجوم الهيضـــة واستفحال أمر الطاعون ، وطغيان دجلة وغرقه أكثر من مرة لبغداد[2] .. وقد صمدت بغداد أمام هذه المحن بصبر دونه صبر أهلها الجميل تحت كابوس ذلك الظلم العثماني الرهيب الذي ما انفـــك يفرض الضرائب ويستلب الاتاوات في جميع أنحاء امبراطورية الرجل المريض .. وقد بلغ الظلم مداه أثنـــاء الحرب حين يئس (الباب العـــالى) من النصر فأصدرت الحكومة نقودا من الورق كتبت عليها : « تستبدل بالذهب بعد سنة من انتهاء الحرب » واستعملت السياط في جمع (اللـيرات)

---

(١) من سنة ١٩٠٤ حتى سنة ١٩٢٤ .

(٢) وقعت هذه الحوادث خلال سنى ١٨٧٨ وما بعدها .

الذهبية واستبدالها بالعملة الجديدة[٣] مما أثقل ذلك كواهل التجار والمستهلكين على حد سواء .

وبنتيجة هذه الكوارث والمحن برزت فئة من اهل بغداد وقفت في وجه السلطة بضراوة وعنف ، وعارضت اسلوب الحكم على طريقة خاصة استعملت فيها القوة والسلاح . ولم يكن لها من هم بادىء الامر الا تقويض دعائم ذلك الحكم الغاشم . لذلك فانها عمدت في عمليات السلب والنهب التي مارستها الى قطع الطريق بوجه القوافل الحكومية القادمة من الاستانة وهي تحمل رواتب الموظفين ، فاطلقت عليهم السلطات آنذاك لقب (اشقياء) استخفافا بامرهم ثم تطورت التسمية الى ما سوف نرى قريبا .

□◉□

ولقد كانت اعوام الحرب العالمية على البغداديين وغيرهم من سكان المدن يوسفية عجافا .. كما كانت لتلك الحرب سببا لظهور عدد اكبر من الاشقياء وذلك بتهرب الكثيرين من الخدمة العسكرية، ومن الاشتراك في حرب طحون لم تكن للعراقيين فيها ناقة ولا جمل ، وجاء (السفر بر) ضغثا على ابالة ، فهرب كثير من البغداديين عن

---

(٣) لم يفت على ظرفاء بغداد وهم في تلك المحنة القاسية ان يسجلوا هذه الحادثة شعرا ثم صار غناء على كل لسان :

انا المسيچينه انا	انا المظيليمة انــا
انا الباعوني هلي	بالنوط والوعدة سنه

وجه الخدمة في صفوف (العساكر السلطانية) والجأهم ذلك الى الاختفاء عن اعين الجندرمه واصبحوا بالتالى من زمرة الاشقياء ..

ومن الاسباب الرئيسة في ظهورهم أيضا : الحرب التي اندلعت نارها سنة ١٩٠٤ بين ابن سعود وابن رشيد ، فقد كانت الحكومة العثمانية تشد من أزر ابن رشيد ، وقد حتم عليها موقفها هذا بأن تجهز جيشا كاملا وتسفره الى مواطن القتال في البادية النجدية ، وقد وقعت طامة تجهيز هذا الجيش على رؤوس العراقيين ، واهل بغداد منهم بصورة خاصة . فقد فقدوا في تلك الحرب خيرة ابنائهم اذ ماتوا جوعا وعطشا بسبب تلكؤ السلطة عن ارسال (الارزاق) والمؤونة اليهم .

ومما يصفع الحكم العثماني بالجبين ان أحمد فيضي باشا وكيل ولاية بغداد آنذاك ، قد اهتبل هذه الفرصة ، وأخذ يأخذ الاتاوات من أهالى بغداد مهددا اياهم بارسال أولادهم الى ساحة الحرب ، فجمع اموالا طائلة . وقد سمّى البغداديون تلك الحرب (دگه ابن الرشيد) والاتاوة التي جمعها وكيل الوالي (خاوة ابن رشيد) وصارت على مرور الايام مثلا يضرب به من الامثال .

هذا وعند انتهاء الحرب العالمية بوقوع الاحتلال البريطاني وادارة دفة الحكم من قبلهم وبشخوص من ابناء مستعمراتهم من البلاد الاخرى .. عادت الشقاوة وفرضت نفسها على المجتمع وعلى السلطة المحتلة معا ولكنها جاءت في هذه المرة بثوب آخر ، بثوب طرزته الوطنية الصادقة بخيوط من اهابها الحر ، فان الحماس الوطني الهب مشاعر البغداديين

الى جانب اخوانهم ابناء الفرات ، فاشعلوا فتيل الثورة العراقية طلبا للاستقلال فكان الاشقياء في تلك الفترة يؤدون واجباتهم الوطنية باقلاق السلطات المحتلة واشغالها بشن الحملات على مراكز البوليس الانكليزي ، والاغارة على مخيمات الجيوش المحتلة بين ليلة واخرى وسرقة العتاد والمهمات الحربية منها حتى عمدت السلطات الى كهربة الاسلاك الشائكة التي كانت تحيط بتلك المخيمات والمعسكرات .

غير ان ذلك لم يفت في عضد الاشقياء ، فسرعان ما تدبروا الامر ، فكانوا يطفرون عبر الأسلاك بواسطة القفز بالزانة وهكذا حتى انتهت الثورة واستتب الامر للجيوش المحتلة غدراً و ... تمثيلاً !!

□◉□

أما كلمة (شقاوة) فهي من المصطلحات البغدادية الاصيلة وقد كانت ـ ولا تزال ـ تطلق على الاعمال التي يمارسها الاشقياء بالقوة والبطش .. غير ان واقع الحال ، يوحي الى شقاء الاشقياء والى ما هم فيه من بؤس وحرمان وقلق وخوف ، ومما كان يخفيه القدر من مفاجئات لا تخطر على بال ولا تقع الا في فحمة الليل .. قبل ان توحي الى ما هم عليه من قوة وبأس في عراك الحياة وفي سبيل البقاء أيضاً .

واصبحت كلمة (شقاوة) بمرور الايام من المصطلحات المحببة التي نداعب بها بعضنا البعض فنقول مثلاً (منو يگدرله .. صاير

شقاوة) او (يابه اشدعوه شقاوة) الى غير ذلك من المصطلحات والتعابير المألوفة في مجتمعاتنا الشعبية او في ندواتنا الخاصة .

□●□

ولقد أنجبت بغداد في ذلك العصر عددا كبيرا من الاشقياء ، ولا أظن ان حاضرة من حواضر الشرق قد انجبت مثل عددهم ، اللهم الا اذا استثنينادمشق والقاهرة ، فان الحياةالعامةفيهما لا تختلف بشيء عما هي عندنا .. وممن اشتهر امرهم من الاشقياء في عصر الاشقياء عمران الشبلاوي وعباس السبع وطه بن الخبازة وصالح بن الدهان ووحيد المصري وابراهيم الحوراني وممودي والحاج شاكر الخياط وعباس السبع وأحمد قرداش وقدوري وابن عبدكه وغيرهم .. وقد قضى معظمهم نحبه قتلا..ويعيش بين ظهرانينا اليوم من شيوخ الاشقياء أناس أفاضل ، تركوا اعمال الشقاوة منذ زمن بعيد ، وقد تابوا[1] الى الله تعالى توبة نصحوحاً ، فانهم يؤدون الصلوات باوقاتها ويصومون رمضان ، ومنهم افاء الله عليه بنعمته فادى فريضة الحج .. ولا أراني بحاجة الى ذكر اسمائهم بقدر حاجتنا الى عفو الله تعالى وغفرانه .

ولكننا لو تأملنا حياة اى شقي من اشقياء بغداد ، وسبرنا غوره لوجدناه انسانا تفيض جوانحه بشتى احاسيس الحب والخير والجمال،

---

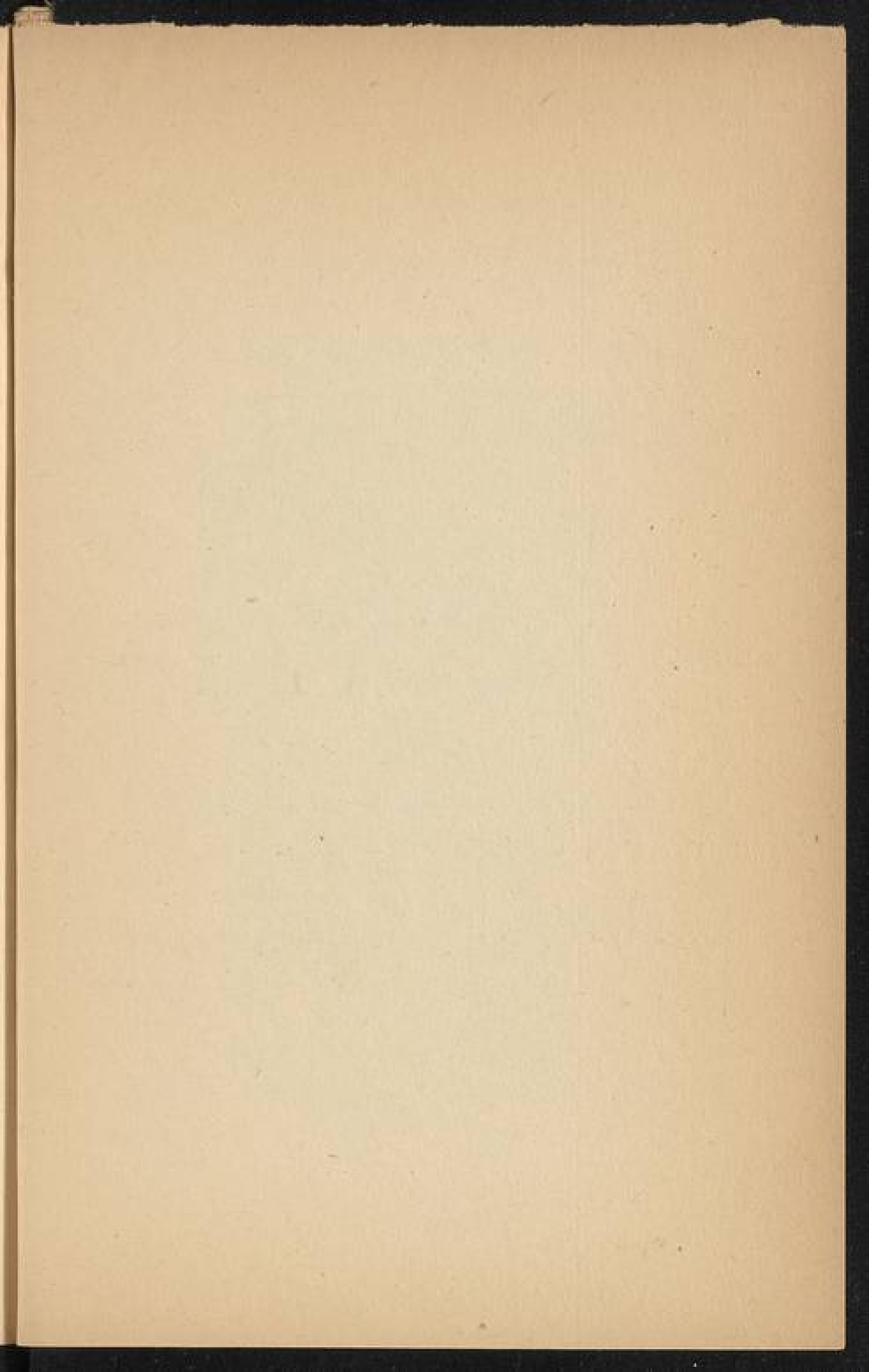
(١) تعففوا عن أعمال السلب والنهب .

ومنهم من يغالي في احتساب المروءة لازمة من لوازم حياته[1] ..
أما العنف والعصيان وما الى ذلك من الافعال التي تطعن صميم الانسانية . فانها من مستلزمات تلك الحياة الشاقة التي لا مندوحة منها في سبيل الحفاظ على الحياة ولو كانت بلماظة !.. وعلى العموم كانت أعمال الاشقياء مقصورة باديء الامر على سلب قوافل الحكومة كما أسلفنا ، ثم تطور الحال الى السطو على دور الاغنياء والموسرين كلما اشتدت سطوة الحكومة وعززت قوافلها بأفراد مدججين من الجندرمة الغلاظ !.

---

(١) من أشقياء محلتنا طه بن الخبازة ، وقد ادركه صديقنا الاستاذ عبدالكريم العلاف حيث قال في كتابه بغداد القديمة : « كان ابن الخبازة كله أعين ساهرة لحماية ابناء محلتنا الفضل وحراسة دورهم من الذين تعودوا السلب والنهب ، ومن أعماله مارواه لي الحاج جارالله الكرادي قال لي : ان ابن الخبازة لم يكن شقيا جسورا فقط ، بل كان حارسا أمينا للبساتين التي كانت تحت تصرفنا ، وكان يقضي أكثر أيامه في البستان المسمى (الربع) الصرافية ، بعيدا عن أنظار الحكومة ، وذات يوم دعوته لتناول طعام الغداء عندي ، فقال بلهجته البغدادية (خليها غير وكت) لان الشط في حالة ازدياد ولابد من العسكر يأتي لمحافظة السداد وذهب ماشيا على السدة وهناك شاهد امرأة عائمة في الشط وهي قابضة على صبي صغير وهي تصارع الامواج الصاخبة فلم يكن منه الا والقى نفسه في الشط وانقذ المرأة والصبي ونجاهما من الغرق ، وفي تلك الساعة داهمه رجال الجندرمه وتصادم معهم وتوغل في البساتين ونجا منهم »

ولم يكتف شقاوات بغـــداد بأن يكونوا على جانب كبير من الرياضة وحسن الخلق وتجنب السطو على بيوت العزل والغرباء ، بل انهم كانوا يتحلون بأخلاق جميلة جذابة تتعلق بمشاركتهم الحياة العامة في مجتمعاتهم المحلية وعلاقاتهم التي يشدونها الى محلاتهم والى أبنـاء محلاتهم شدا محكما مما جعـل ابناء تلك المحلات يعتـــزون بشـــقاوتهم ويبـــذلون الغالى والرخيص في درء الأذى عنهـــم واخفائهم لهم في بيوتهم عن أعين الجندرمة •• وخير تعليل تعلل به هذه الظاهرة الشعبية الآخاذة هو العداء الذي كان يضمره البغداديون وغيرهم للسلطات الاستعمارية العثمانية التي كان يمثلها الجندرمة • ومصدر هذا العداء هو تردي الحالة الاقتصادية ترديا جعل الحكومة تتفنن في استنباط أســـباب فرض الضرائب الجديدة • وعلى هذا الأساس كان أبناء محلات بغداد يلتفون حول شقاواتهم لانهم وحدهم الذين كانوا يقفون وجها لوجه أمام السلطة ، وهذا ما يجعلنا في حل من جعل الاشقياء في مصاف الفتوة أو انها من بقـــاياها على الاقل ، ذلك لو اننا استعرضنا أعمال الفتوة العربية والبغدادية منها بوجـــه خاص لوجدنا انها لا تختلف بشيء عن أعمال الاشقياء الا بأنظمتها الخاصة وقواعدها المتينة •



أهل الزود اطلعوا ثارت الچيلات [1] !

• •

ولعل أقرب مثل نستطيع أن نسوقه في هذا المجال هو ان شقيا من شقاوات بغداد كان يدعى (عباس السبع) قد اصطدم مع زميل له يدعى (خماس بن شـــالة) في (مقابلة)[2] مع رجال الجندرمة بالقرب من جامع فرج الله في محلة بني سعيد ، وكانت تلك المقابلة رهيبة استعمل فيها الطرفان كل ماكان عندهما من قوة ، فلما نفد عتاد السبع وابن شالة التجئا الى الجامع واختفيا فيه ، غـــير ان القوة سرعان ما علمت بموضع اختفائهما فقبضت عليهما ، وبدلا من أن تذهب بهما الى الموقف أو الى (القلغ)[3] أردتهما قتيلين ، وربطت كلا منهما بجواد يسحبه حتى ساحة الميدان .. غير ان هذا التشييع الجنائزي الشاذ لم يخل من نخوة احتدمت في صـدور البغداديين

---

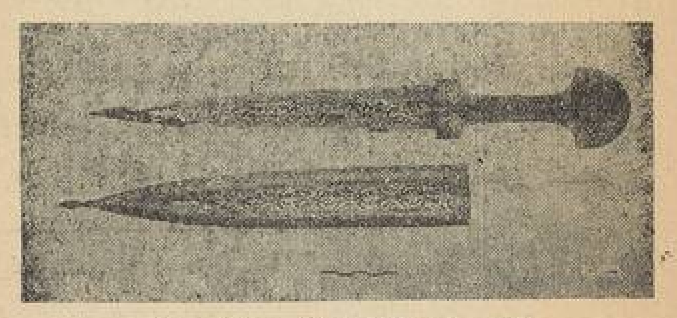
(١) مفردها : چيلة ومعناها الطلقة ، وقد تعود المجتمع البغدادي في ذلك العصر على سماع الطلقات النارية كل ليلة .

(٢) المقابلة : مصطلح بغدادي كان يطلق على التصادم بين الاشقياء والجندرمة .

(٣) القولغ : مصطلح عثماني كان يطلق على مركز الشرطة .

فقد خرجت (الأطراف) بشيوخها وشبابها بموكب عز نظيره في مواكب الشقاة الاشقياء ، وتلا ذلك مواكب البغداديات الذي تجلت فيه الروح البغدادية الاصيلة عند جداتنا وعماتنا اللائي كن يشاركن الرجال هموم الحياة وأثقال الضرائب وهن يهزجن : (أهل الزود اطلعوا ثارت الچيلات) .

وانها لاثارة جذابة لـ (أهل الزود) أصحاب الرجولة الصادقة والارومة الطيبة الذين يقارعون الحكومة المحتلة في اشخاص عساكرها من الجندرمة ، وانها لاثارة تضفي على المرأة البغدادية طابعا أصيلا يعود بنا عبر التاريخ الى المرأة العربية ، وكيف كانت تقاتل جنبا لجنب مع أخيها الرجل .. وأظن ان هذه الاشارة العابرة الى المرأة البغدادية في مثل هذا المقام كافية اكتفاء بأهل الزود وتقتهابهم .

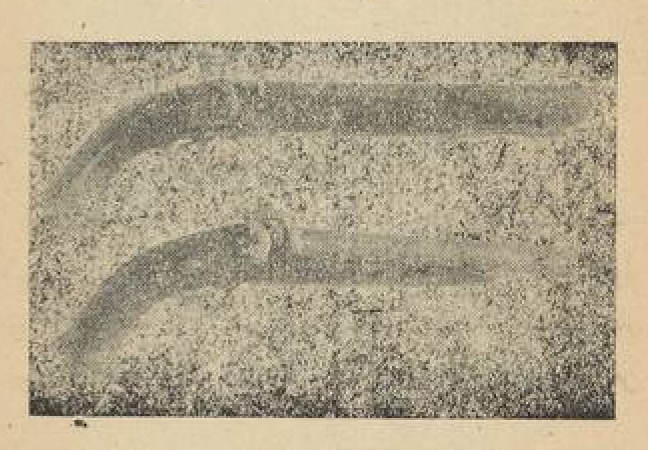


خنجر من الطراز القديم نقش عليه :
(عبد بلا سلاح كالطير بلا جناح)

سلاح الجندرمة وسلاح الاشقياء

• •

ولقد كان العداء قويا ومستحكما بين رجال الجندرمة والاشقياء ، وكان طابع هذا العداء القتل بسرعة ، والمبادرة الخاطفة الى أخذ الناصية على الغرماء •• اذ ليس يسيرا على رجال الجندرمة أن يسقط كل يوم قتيلا منهم يتضرج بدمائه على الارض • كذلك ليس هينا على الشقي أن يستسلم الى غريمه الجندرمة ليفتك به ويمثل بأشلائه



نموذجان للبشتاوة والقربينة



البـــاروده

سريعا ومن غير محاكمة كما أسلفنا ، وهذا ما جعل هذا العـــداء شخصيا أكثر منه رسميا من جانب الجندرمة .. ولذلك فان القتول كانت تقع بين ليلة وليلة ، وتتسم كلها بسمة الاخـــذ بالثـــار بالنسبة لجميع الغرماء ، ولا شأن للمحافظة على الأمن فيها . ومن الأمثلة التي نستطيع أن نسوقها بهذا الشأن ان احدهم وكـــان يدعى (صالح ابن الـــدهان) ، كـــان قد حضـــر لزيـــارة أحـــد

أصدقائه في محلة القراغول (الفضل) ، وعند خروجه صادف أن جاءت دورية الجندرمة برئاسة (السرقمسير) فاصطدم الجانبان وقد دامت (المقابلة) أكثر من ساعة وروعت أصوات العيارات النارية أهالي محلة القراغول فحبسوا انفاسهم من الخوف والهلع ، فلما نفد عتاد ابن الدهان فر هارباً يريد جانب الكرخ ، ومن المآسي التي لا تخطر على بال ، ولكن القدر يريدها أن تقع .. ان العادة التي كانت متبعة في طرق المواصلات النهرية هي رفع عوامتين من الجسر ليلا لعبور السفن الشراعية والبخارية .. ولم يكن ابن الدهان ليعلم بهذا الروتين العثماني فلما وصل الجسر واستمر راكضا سقط في النهر من محل العوامتين المرفوعتين ، وقد اخرجت جثته في اليوم الثاني وعثر في جيبه على عشرين ليرة عثمانية ذهب و (شمعة !) و (قامة) .. مع مسدسين من نوع القرهداغ[1] وقد وقع هذا سنة ١٩٠٨ .

والظاهر من هذه (المقابلة) التي كانت بدايتها زيارة صديق، ولاية للسطو فيها ، ومفاجأة الجندرمة لابن الدهان وهو آمن في طريقه انها كانت من قبيل أخذ الثأر لا أكثر ، وقد كان ابن الدهان شقيا جسورا أوقع رجال الجندرمة في مآزق حرجة وقتل منهم عددا لا يستهان به طيلة عهده بالشقاوة .

□◉□

---

(١) نسبة الى منشئه بلاد الجبل الاسود (يوغوسلافيا) .



مجموعة من السيوف والقامات والخناجر ويبدو بينها الخنجـــر (الكديمي) معقوفا على شكل راس حصان في ثلاثة اشكال

وان عداء متمكنا كهذا قمين بأن يجعل كافة الغرماء في وضـع مسلح وعلى اهبة لما سوف يقع ، فما هي أنواع الاسلحة التي كان يحملها الجانبان ؟..

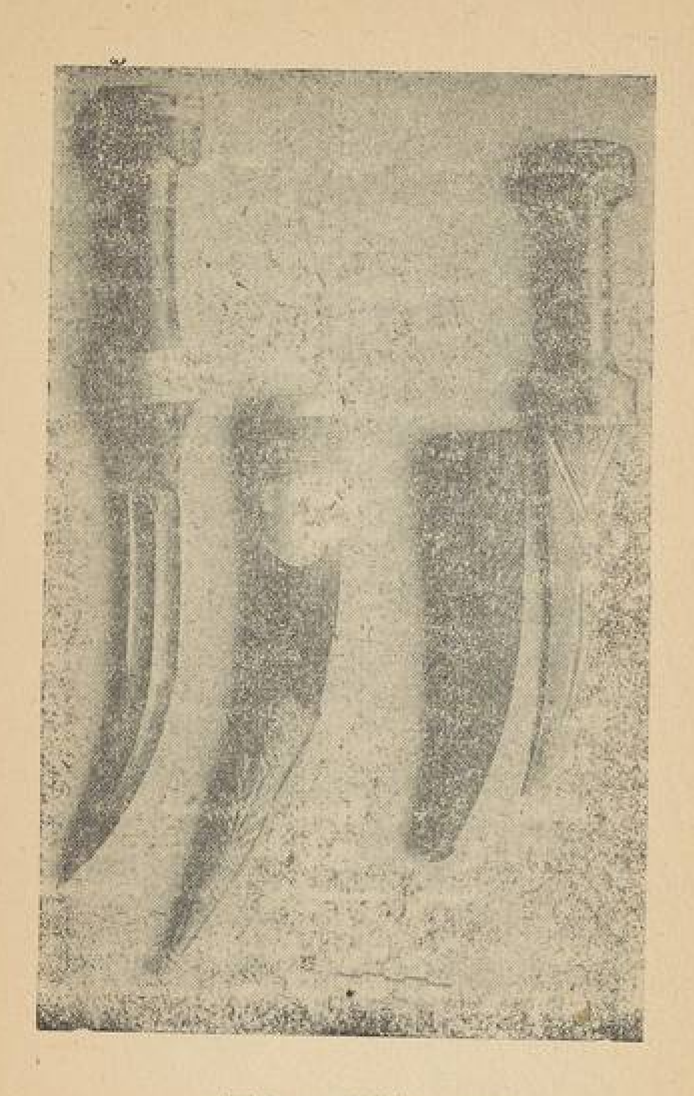
كانت السلطات العثمانية تزود جنودها وقواتها من أفـــراد الجندرمة بالبنادق وهي على أنواع ومنها (القباغلى) وهو ذو الغطاء

الموضوع على الفوهة ، والمارتيني ويسميها البغداديون (الماطلي) ومؤنثه (الماطلية) .. وأما سلاح الاهالي ومن جملتهم الاشقياء فكان يتألف من (البشتاوة) و (القربينة) وهذان السلاحان كانا بمثابة غدارات تحشى بالبارود وقطع الحديد الصغيرة (الصچم) فعندما يتحرك الزناد تندفع الاطلاقة وهاجة لتدخل قلب الجندرمة الذي كان عنواناً لحكم (قره‌قوش) في بغداد .

وقد تطورت هذه الاسلحة وكثرت أصنافها عند اعلان الدستور العثماني في أواخر أيام الرجل المريض حيث أخذت المسدسات تنهال بمختلف أنواعها على الاسواق وأصبحت بمتناول الايدي ، ومن أنواع هذه المسدسات (القرداغ) و (البلدك) و (أبو المشط) و (التك) و (الوردور) الخ ..

ومن أسلحتهم أيضا الخناجر ومنها (القزيني) و (الاروبلي) و (الكديمي) ثم (القامات) و (السيوف) و (الچلتيانات) ..

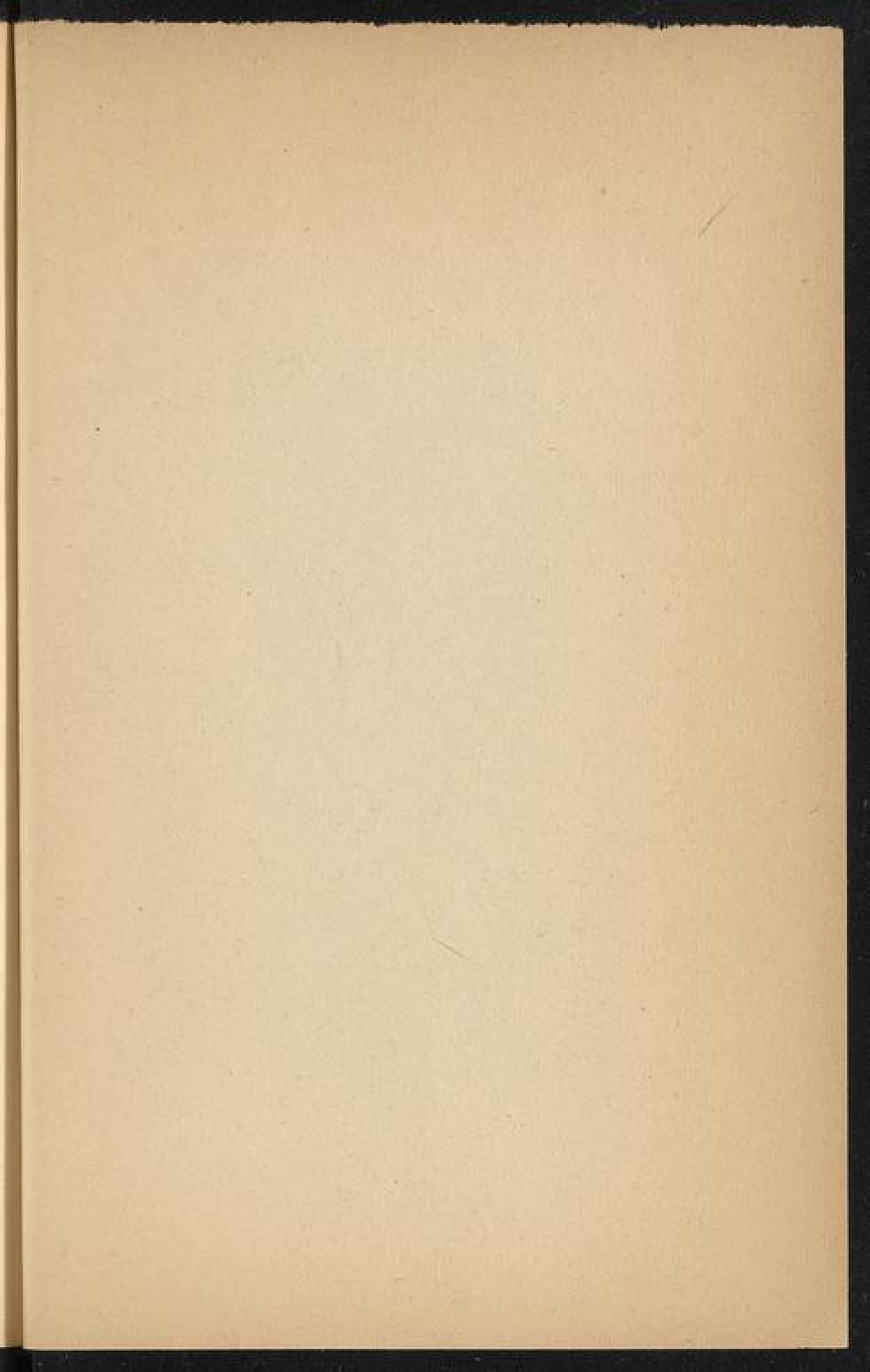
أما شقاوات جيلنا فقد كانوا يحملون المسدسات ومنها (أبوالمشط) وتركوا حمل الخنجر الى السكاكين الشامية وفي طليعتها (ام الباي) ولنا منهم (أبناء طرف) وأصدقاء تركوا شقاوات الماضي واحترفوا الحرف وأصبحوا من ذوي المكانة المحترمة في الاوساط الشعبية لما يتحلون به من دماثة خلق ، واني اذ أذكر لهم هذا .. أذكر بذكرهم تلك الفترة الذهبية من حياة الانسان وهو لما يتخطى



نموذجان مختلفان من الخناجر

العشرين ، ولم يصل سوح المسؤولية والكفاح ، تلك الفترة التي كانت أغنى ما تكون فيه الحياة بالبهجة والمرح ، فتلهينا عن كل شيء، فلا نبرح مكاننا من (تخت) المقهى الا بعد أن تستوعب أذهاننا فصولا جديدة من معارك عنترة بن شداد أو أبي زيد الهلالي .. أو غيرهما من أبطال ملاحمنا العربية .

◉ ◉



ابو زيد الهلالي والاشقياء !

• •

وقد كان لشقاوات بغداد ولع أي ولع بالاصغاء الى ما ينشده (القصهخون) من أخبار تلك المعارك وما يصوره من أشكال تلك البطولات •• ولا غرو في هذا فانهم هم أيضا من أصحاب المعارك والبطولات ، واذا كانت مكارم الاخلاق قد طغت على شخصية أبي زيد أو عنترة أو غيرهما من أبطال الملاحم ، فان الشقاوات أنفسهم كانوا لا يجدون مناصا من التمسك بأهداب الأخلاق وخير مثال نضربه على ذلك ان الشقي (ممودي) اعتزم ذات ليلة الذهاب الى زيارة بعض أصدقائه في محلة باب الشيخ بعد أن أعلن توبته ، وعند عودته ووصوله بالقرب من مقابر اليهود داهمه رجلان وقد شهر عليه كل منهما مسدسا ولما أدرك انهما يريدان سلبه خلع عباءته ووضعها على الارض وأخذ يخلع ملابسهوهو يقول ضاحكا : « هذا هو شأن الدنيا يوم الك ويوم عليك » فلما سمعه الرجلان وعرفاه من صوته أخذا يعتذران له ويقبلان يديه ، فصفح عنهما بعد أن أخذ عليهما عهداً بأن يتركا أعمال السلب وقطع الطرق على السابلة وأفهمهما انه عندما كان شقيا فان شقاوته كانت محصورة في مناوأة

الحكومة العثمانيـــة وليس في أعمال السلب والنهب ، اللهم الا اذا اقتضت الضرورة .. ضرورة الحيـــاة ، فانه كان يسطو على دور الموسرين من الاجانب .

وكذلك كان يجد الاشقياء في الاصـغاء الى (القصــهخون) ما يثير في نفوسهم من غرائز أصيلة في الاحتساب الى المستقبل وهو بيد الله ، ولو ان عالماً من علماء النفس قد تطوع وسبر غور أي واحد منهم ، لوجد ان جوانحه وهو يصغي الى أشـــعار (القصهخون) تفيض أبدا وفي كل لمحة من ملامح وجهه التعبيرية بالخير والجمال . ولراعه أن يجد حامل (البشتاوه) هذا أو متمنطق (الجلتيانة) ذاك رجلا شهما وحساسا رقيقا .

□●□

و (القصهخون) هو الآخر من بقايا نظام الفتوة ، وقد شهدته وأنا في الخامسة عشرة من عمري ، فرأيته رجلا قد تخطى العقــد الخامس بقليل ، وقد عقد على رأسه (چراويه) جعلها في لفتـــين تشبهاً بـ (الشقاوات) ولكنه كان يمتاز عنهم بالنظارة التي كان يضعها فوق أنفه بعد أن يشدها الى اذنيه بخيط رفيع من (الساتيم) فهو بحسابه استاذهم وبحسابهم شاعرهم .. وكان اذا هم بالتلاوة أو الانشاد شهر سيفا خشبيا واخذ بالانشاد على طريقة غنـــائية خاصة وذات ليلة وقد وصل من القصة الى أن أبا زيد قد قتـــل في المعركة الحاسمة ألف ألف فارس ، استبد به الانفعال وبضربة من

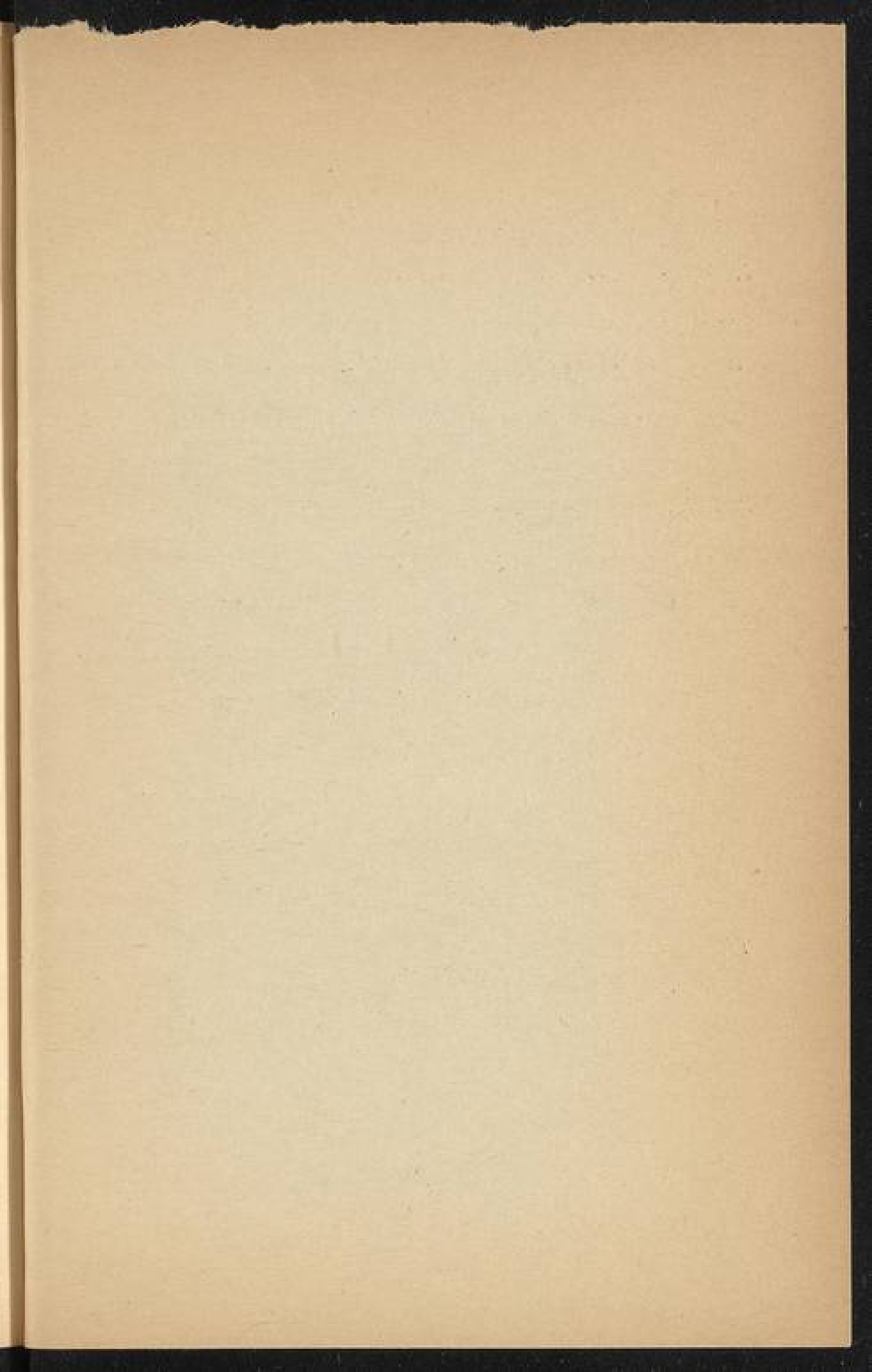
ضربات سيفه الخشبي حطم المصباح النفطي الذى كان معلقا فوق رأسه وساد الظلام ، فأخذ الحاج عبود صاحب المقهى يبحث عن الشمعة وهو ممسك بتلابيب القصه‌خون ويحمله مسؤولية تحطيمه المصباح فهو يريد ثمنه •• يجري هذا في كل ليلـة وفي كل مرة يتدخل أحد الرواد فيدفع ثمن المصباح المحطم وينجو القصه‌خون •

وذات ليلة أيضا صادف أن أنشد القصه‌خون شعرا وقع فيـه أبو زيد أسيرا بيد أعدائه فدخل السجن ، وأنهى الفصل وأرجـا بقية القصة الى اليوم التالى ، غير انه عندما وصل الى البيت راعه أن يجد أحد (الشقاوات) الشبان ينتظره وفي يمينه خنجر مرهف الحد ويقول له مهددا :

ـ ملا •• راح اتطلع أبو زيد من السجن لو لاع !

وعلى ضوء المصباح النفطي الذي كانت تنير به البلدية شوارع وأزقة بغداد فتح القصه‌خون كتابه ووصل ما انقطع من سياق القصة، وأخذ يتلو بصوت خافت كيف ان أبا زيد استطاع أن يثقب سقف (الزنزانة) وكيف حطم باب السجن وفر من سجنه باعجوبة •

وهنا تنفس الشقي الصعداء فقـد خرج أبو زيد من السجن وترك الملا الى داره المعتمة في آخر الزقاق وخياله أبدا مع أبي زيد •



« الموال »[1] في حياة الاشقياء

وكما عرف الاشقياء بحياة القوة والبطش واهتبال الفرص المواتية في الكفاح من أجل البقاء ، فقد عرفوا باصالة تذوقهم للفنون، شأنهم في ذلك شأن البغداديين جميعا ، ولا غرو ، فقد كان البغداديون

---

(١) من ألوان الشعر الشعبي المتأثر شيئا ما بالفصحى ، واول من نظم فيه أهل واسط وقد ذكر ذلك شهاب الدين في كتابه (سفينة الملك) وقال ان أول بيت منه ما قاله بعضهم :

منازل كنت فيها بعد بعدك درس
خراب لا للعزا تصلح ولا للعرس
فاين عينيك تنظر كيف فيها الفرس
تحكم وألسنة المداح فيها خرس

ثم انتشر الموال وذاع صيته عندما فتك هرون الرشيد بالبرامكة ومن بينهم جعفر البرمكي وأمر الرشيد بأن يرثي فرثته جارية بهذا الوزن وجعلت تقول نادبة يا (مواليا) ...

واختلف في سبب تسميته بهذا الاسم ، فقيل سمي به لموالات قوافيه بعضها ببعض ، وقيل سمي بذلك لان اول من نطق به : موالي بني برمك ، وكان احدهم اذا نطق به ونعى قال : يامواليا ، وهذا هو الاصح ـ فنون الادب الشعبي للخاقاني .

وما فتئوا مضرب المثل في الظرف والميل للطرب والعناية بالنظافة ، أما ولعهم بالسخاء والاريحية ، فذلك أمر لا نحتاج الى ما نستدل به عليه[1] • وهذه بلا شك وغيرها من الأوصاف الحسنى تفتح أبواب الازدهار للحياة فيكثر الظرفاء وتكثر بكثرتهم الفنون ، وان بلدا يجعل بجماله وحلاله من السقائين في مراتب الاريحية والظرف حـــري بان يسمو بكبرياء خلوده الى القمم الصاعدة شرفا ومجدا • وقمين بأن يجعل من فتيانه الاشقياء في طليعـــة الـــواردين من نمـــير المكرمات اعذبها واسلسها وابردها على القلب الصادي • وهـــكذا تولع الاشقياء بالفنون ، وأحبوا الموال منها بوجه خاص •

□◉□

وقد كانت مجالس بغداد في العصر الماضي تعج بطائفة كبيرة من

---

(١) واقرب مثل على ذلك ما قيل عن ذي‌النون المصري انه قال : « من أراد ان يتعلم المروءة والظرف فعليه بسقاة الماء ببغداد ؛ قيل : وكيف ذلك ؟ فقال : لما حملت الى بغداد رمي بي على باب السلطان مقيدا ، فمر بي رجل متزر بمنديل مصري ، معمم بمنديل دبيقي ، بيده كيزان خزف رقاق وزجاج مخـــروط ، فسالت : أهذا ساقي السلطان ؟ فقيل : لا ! هذا ساقي العامة ، فاومات اليه ان اسقني فتقدم وسقاني ، فشممت من الكـــوز رائحة مسك ، فقلت لمن معي : ادفع اليه دينارا ، فاعطاه الدينار ، فابى وقال : لست آخذ شيئا فقلت له : ولم ؟ •• فقال : انت أسير وليس من المروؤة ان آخذ منك شيئا ، فقلت : كمل الظرف في هذا ؟ » •

الشعراء والظرفاء الذين تفننوا في نظم الموال غير ان ادبنا الشعبي لم يسجل لاحد انتصارا في هذا الشأن كما سجل ذلك للملا جادر الزهيري ، فقد كان من فتيان بغداد ، وقد توله بحبها فنظم فيها وفي شمائل أهلها الغر من الموالات التي لا تحصى ، غير انها تبعثرت مع الاسف المرير ، ولم يسعفني الحظ في الوقوف على شخصية هذا الشاعر الفذة وقد يكون من ابناء محلة المهدية في الفضل حيث يسكنها فخذ من عشيرة الزهيرات المعروفة في لواء ديالى ، ويا ليت من ينبري من الادباء فيؤرخ لحياة هذا الشاعر الفتى البغدادي الذي جمع خصال الفتوة وآدابها في موال واحد لا يزال يترنم به البغداديون ولا احفظ له شيئا سواه[٢] فهو يقول :

امعادن الود تظهر من معادينى
وحگوگ الاصحاب اوفيها معادينى
والصاحب اللي گرن دينه معادينى
من غيمة الريب جوّى لم يزل صاحبي
واللي شرب كاس خمر امودتي صاحبي
اكره صحيب الذى يحجي گفا صاحبي
واللي يعادي صحيبي هو معاديني

---

(٢) لم يجد أهل بغداد تكريما لشاعرهم الا تسمية الموال بأسمه فهم ينسبونه له حيث يسمونه (زهيري) وقد عمت هذهالتسمية وشاعت في مدن الشمال . واكرم به تكريما لشاعر بغداد .

فأي موال زهيري جياش بمعاني الاخوة هذا ، واية خصال كريمة من خصال الفتوة العربية تكتنز فيه ؟..

فلقد جاء في الأثر الشريف : الناس معادن .. وقد فاخر الملا جادر الزهيري البغدادي بأن معادن الود تظهر من معادنه فهو الجوهر .. واذا كان ولابد من أظهار ما يتسم به من سمة الايثار فانه يتطوع بملء ارادته واختياره الى الوفاء بديون اصحابه الى جانب وفائه بالديون التي بذمته الى غيره .. وانه ساع الى ان يجعل الجو الذي يكتنفه وصاحبه في حالة صحو من كل غيوم الريب والشكوك ، واعتزازا بحبه لاصحابه فان كل من يشرب من خمر مودته يصحو به ، ولا تعتريه السكرة وهذه كناية عن المغالاة في الحب .. وطبيعي ان نفساً كهذه جياشة بحب صديقها تكره مصاحبة الشخص الذي يغتاب ذلك الصديق ، وانه في حالة عداء دائما مع الذين يكنون لصاحبه العداء ..

□◉□

ومن الموالات التي سمعتهم يترنمون بها ما قاله الشاعر الشهير عبدالغني جميل البغدادي وهو جد الاسرة الجميلية المعروفة في بغداد وأرومتها في محلة قنبر علي :

انبيك يا صاح روحك بالصبر علّها
علّ الليالي تعود وترتشف علّها
ان چان طير السعد رفرف ولى علّها

وهناك نبني بيوتٍ للمجــــد وعــراف
ونجيد أهل الرده بمشـــذّبات عــراف
يا حسرتي كوطروا عني الـولف وعراف
واليوم جم عام روحــي ما برت علّهـا

□◉□

وقول الملا سلمان الشكرجي العبدلي البغدادي :
نار الهجر بالضماير زاد واطيهـا
واعلى المعالي شمخ بالجور واطيهـا
دار الجفت خلتي يارب واطيهـا
هيهات روحي ترد وتعـود لاجنهـا
ونيـاب فرك الولف لحشاي لاجنهـا
لو جــان ربعي بهمّي تهم لاجنهـا
ما تحرك النار الا رجل واطيهـا

□◉□

وما قاله الشاعر الشهير عبدالغفار الاخرس :
آه على الطيـف منــك لو يزور بســنه
ويلوح الى من جبينك هلّ وضحى بسنه
لا تظن غـيري مســودن متبلى بســنه
هايم بذكرك واحسب احساب بعدك وعـد
واهلّ كثر المدامع من صــدودك وعــد

واعـــد وماطل ولا توفى بـذاك الوعـــد
أرضى ولو صار وعـــدك كل يوم بســـنه

□◉□

ولا نقول جديدا ان الشاعر الشعبي الشهير الحاج الحاج زاير الدويج النجفي قد ابدع أيما ابداع باقتفاء أثر عبدالغفار الاخرس في موال سمعت الاستاذ محمد القبانجي يتغنى به على نغم (الابراهيمي) في احدى المناقب النبوية الشريفة ، واصبح على لسان جمهرة المغنين الهواة من أهل بغداد :

من يوم فرگاك ما لـــذ ّن جفوني بســـنه
ولكثر شوگي تسـعر هل دليـــل بســـنه
يا ترف حسنك يفوگ على البدور بســـنه
من دون كل الخلگ ســيفه علي ّ شـــهر
حين ٍ رماني ولاسـرار المـــودّة شـــهر
انت عليك السنه تمضـــي بحسبة شـــهر
وآنه علي ّ الشهر كـــل يوم منّه بســـنه

□◉□

ولقد يفتنك ان ترى بين الاشقياء شعراء ينظمون الموال والعتابة تأسيا وتشكيا من نائبات الدهر ، فهذا عمران الشبلاوي القيسي الذي دوخ العثمانيين أمداً طويلا من الزمن ومن بعـــدهم البريطـــانيين حتى وضعت الحـــكومة المحتـــلة جائزة قدرهـــا عشـــرة آلاف

ربيـــة لمن يقبض عليـــه ، فاضـطر بعـــد ان تألبت عليـــه الايام وبلغ من الكبر عتياً ان يلتحق بابناء عمومته بني قيس (الكروية) الضاربين على سفح جبل حمرين حيث قال وهو على فراش الموت[1]:

لمين جفـــن ســـواعيد المجـد منـــي
يقنت بامر الجـــره واگــــريت بالمـــن
ناديت يا منـزل الســـلوى مع المـــن
والدهـــر ياما جيوشـــه بالمراتب عجب
حتى عجبهم من اطـــريح المـــوده عجب
يا رفگتي لـــو مت ما هـــو عليّ عجب
خلي التگادير تاخـــذ حـــگها منـــي

وانا لنجد القوة والابداع والجناس في هذا الموال ، وكأننا نقرأ شعرا فصيحا ، وابدع من هذا تخلصه بعد الاستجارة بربه الكريم (يا منزل السلوى مع المن) الى اعترافه الواضح الصريح بصـلابته في معارك القدر التي تغلب فيها واعطائه الحق للقدر ان يثأر منـــه

(١) من محفوظاتي القديمة وقد نسبه الى عمران الشبلاوي ابن عمه السيد عبدالعزيز القيسي الموظف في وزارة العدل وثبتـــه الاستاذ عبدالكريم العلاف في كتابه (بغداد القديمة) وذكره الاستاذ علي الخاقاني في كتابه (فنون الادب الشـعبي) في جملة الموالات التي غناها الاستاذ محمد القبانجي دون ان ينسبه الى احد مكتفيا بالاشارة الى ان القبانجي قد غناه على مقـــام (الناري) وبهذا صحت نسبته الى عمـــران الشـــبلاوي .

وذلك بقـــوله : (يا رفكتي لو مت ما هو عليّ عجب •• خليّ الكّادير تاخذ حكها مني) •

وانه على ما ترى ليس بكلام قيل جزافا •• انه الشعور بالقوة الانسانية التي تتلاشى امام الموت وهي في عنفوانها العظيم ، وليس ادل على ذلك من انه بارح الدنيا بعد أيام قليلة من ترنمه بهذا المـــوال الدافق دماً وحياة •

وقـــد ذكر لي احد المسنين من ابنـــاء محلتنـــا ونحـــن نتحدث عن الموال والغناء ان شقياً كان يدعى ابراهيم الحـــوراني أوقع الانكليز في مآزق حرجة ، فلما قبضـــوا عليـــه قـــرروا اعدامه شنقا في ساحة الميدان امعانا في اذلال البغادة •• وعندما جيء بابراهيم الحوراني أنشد يقول :

شقاوتي ضوجت خلـگي وعمـــري طال
من كثر قطع الجماجم والدما هطـــال
الحبس لي مرتبه والقيـــد الي خلخـــال
والجنّبه يا علي مرجوحـــة الابطـــال

وفي هذه الخلجات الشاعرية الحارة نستطيع ان نتصور مدى تأثر الحوراني بابي زيد الهلالي ، عندما كان يصغي الى اساطيره وهو فتى في المقهى ، ومن الانصاف ان نذكر له هذا ، فقد قطع في نصف مواله هذا بـ (كثر الجماجم والدما هطال) على انه كـــان اسطوري النزعة في النظم •• ويؤسفني ان محاولاتي في الوقوف على

غير ذلك من منظوماته قــد باءت بالفشــل ، فلم يسـعني الحظ
على ان اعثـر على غـير هذه الاشـطر من موال لم تسـعفه
(الجنبه) وهي حبل المشنقة على اتمامه[1] ، غير ان استجارته بالامام
علي بن ابي طالب عليه السلام دليل على ما كان يعمر فؤاده من فتوة
اوقفته فتى في وجه الاستعمار ، واعتلى خشبة الموت غير هيـاب ولا
وجل لوثوقه من نفسه انه سيتأرجح في ارجوحة كانت على ما بـدا

غير انني عندما رجعت الى الموال وجدت ان الشاعر المشـهور
صفي الدين الحلي وهو ممن كتب عن الادب الشعبي عند المشارقة
والمغاربة في كتابه (العاطل الحالي والمرتخص الغالي) يقول
له وزن واحد واربع قواف على روي واحد ومخترعوه اهـل
واسط من بحر البسيط (صوتا) ومنهم من يسميها (بيتين)
على الاصل . ونظموا فيه اللفظ القوي الجزل في الغزل والمديح
والصنايع على قاعدة القريض المعرب واورد لذلك مثـلا هذا
الموال في الغزل :

ما بين اكناف راكس من حمى التثليم
شرقيّ مزوى بعازات القضا ترسيم
ودون آرام رامـه يسبق التسـليم
نبل بشـق المراير من لحاظ الريم

وما دمنا قد عرفنا ان من الموال ما هو مؤلف من أربعة اشطر ،
ومادام موال الحوراني مؤلفا من اربعة أشطر ومن بحر البسيط
أيضا وبما يحتويه من القريض المعرب (من كثر قطع الجماجم)
فان باستطاعتنا تثبيت مواله على هذه القاعدة ، ولا حاجة بعد
الى البحث عن الاشطر الاخرى لتؤلف موالا ذا سبعة أشـطر

له ارجوحة الابطال !

□◉□

وما دمنا قد تحدثنا عن الموال فلنتبسط قليلا في حديث الغناء وليس كأهل بغداد قوما مولعين بالغناء . وان تعلقهم بهذا الفن الجميل يعود الى عدة عصور خلت ويكفي بغداد فخارا ان يكون ابراهيم بن محمد المهدى وهو من خلفاء بني العباس أحد مغنيها . فقد حدث هبةالله بن ابراهيم بن المهدى عن ابن خالته يوسف بن ابراهيم الخراساني وكان من أصدق الناس ، قال : كان الرشيد يحب ان يستمع الى ابراهيم فخلا به مرات الى ان سمعه ، ثم حضر معه سليمان ابن ابي جعفر فقال لابراهيم : عمك سيد ولد المنصور بعد أبيك وهو يحب ان يسمعك ، فلم يتركه حتى غنى بين يديه شعر الاحوص :

اذا انت فينا لمن ينهاك عاصية

واذ اجر اليكم سادراً وسنى

قال : ثم امر له بألف درهم – ثم قال له ليلة ، ولم يبق في المجلس عنده غير جعفر بن يحيي : انا احب ان اشرف جعفراً بأن تغنيه صوتا فغناه في صوت صنعه في طريقة الهل والشعر للدارمي :

كأن صورتها في الوصف اذ وصفت

دينار عين من المصرية العتق

فأمر له الرشيد بمائة الف درهم .

وممن برز في الغناء في تلك العصور اسحاق بن ابراهيم الموصلي

فقد ذكره كثير : فقال : (لم يكن له في الدنيا نظير في الغنـــاء) •
ويقول ابو حيان في كتابه (الامتاع والمؤانسة) بصدد احصاء المغنين في عصره : (احصينا ونحن جماعة في الكرخ اربعماية وستين جارية في الجانبين ومائة وعشرين حرة ، وخمسة وتسعين من الشبان البدور ، يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة) •

وهذا الاحصاء الذى رقمته الذاكرة اوضح دليل على تهافت البغداديين على الطرب • وكانوا يعتبرون الغناء من فنـون الادب ، كذلك كان الفضلاء والكتاب يأخذون انفسهم به حرصا على تحصيل أساليب الشعر وفنونه ، فلم يكن انتحاله قادحا في العدالة والمروءة ، فلا غرابة اذن ، اذا ورث الخلف هذا الفن الجميل عن السلف • فان الحضارة اذا استكملت نفوذها وهيمنت بسلطانها على نواصي الحياة انجبت أعلاما في كل مرفق من مرافق الحياة ، والغناء مرفق حي منها •

ومن عجب وقد دالت حضارة بغداد في العصر الذى نعيشـه الساعة ، عصر الاشقياء ، انها بقيت المنبع الثر في انجاب المثل التي بيضت وجهها كرباز وشلتاغ واحمد زيدان واضرابهم من اعـلام المقام العراقي ، ومتصدرى (جالغي بغداد) وهو من مفاخر ذلك العصر ، وسيظل أثرا خالدا من آثارها القديمة •

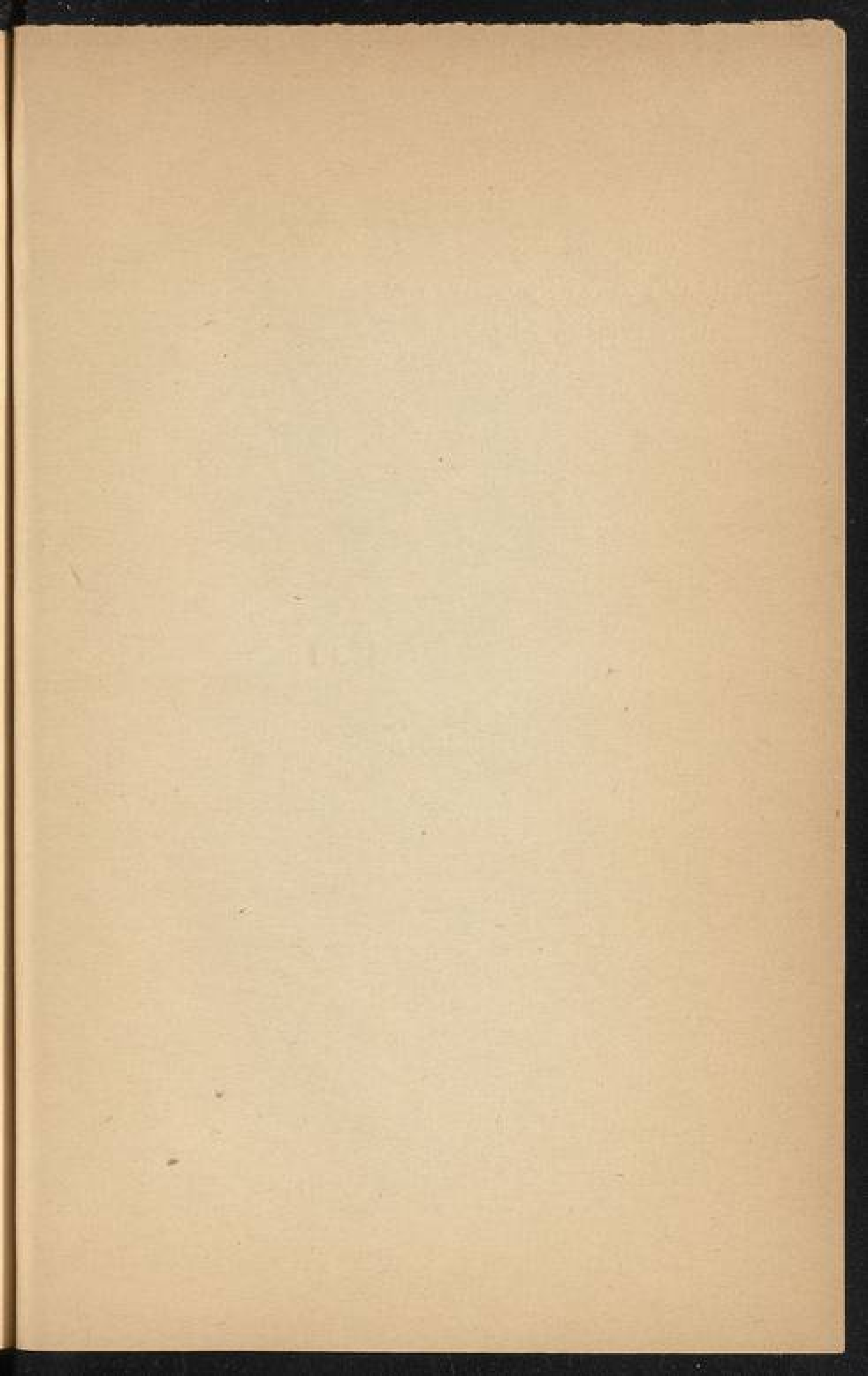
□◉□

أما الغناء بالنسبة الى الاشقياء فانه القلب الذى كان ينبض بحب

الحياة عندهم .. وانني حين عايشتهم بحكم كوني (ابن طرف) وجدت ان الغناء هو السلم الصاعد الى تفهم خصائصهم الذاتية ، وحياتهم المضطربة بين الطلاسم والاسرار . ومن غريب ما عرفته عنهم رؤية وسماعا ولعهم بـ (البهرزاوي) ولعاً يكاد يفرقه عن سائر المقامات فلما سألت صديقا لي كان منهم عن سر هذا الولع قال : ليس ثمة سر في هذا الا ان هذا المقام يغنى فيه الموال ، واننا ـ هكذا اشار صديقي ـ نجد في ألفاظه الدارجة على اللسان الشعبي من معان لانجدها في الفصحى ، فاننا نحب الموال لاصالته الشعبية ونحب (البهرزاوي) بصفة كونه عراقيا أصيلا ، .. ثم أضاف صديقي : واننا نحب الموال لاننا نتحسس في ألفاظه ومعانيه أنفاس ابي زيد الهلالي وكأنها تلهب في نفوسنا شواظ العزم على مجابهة الواقع ، فكأن كلامنا يتحسس في قرارة نفسه انه هو ابو زيد ! ولما كان معظم الاشقياء ممن يتفاخرون في تمسكهم بأهداب الاخلاق الكريمة وبما يلابسها من حب ووفاء فانهم يغنون (البهرزاوي) عندما تشتد حاجة نفوسهم الى الغناء .

غير انني عندما رجعت الى (البهرزاوي) وجدت انه بانتمائه الى فصل (البيات) يدخل مسارب النفس في فيض من البهجة والفرح ، ومن أشد حاجة الى البهجة والفرح من الاشقياء ؟ ... كذلك وجدت في انغامه اصالة عربية تجدع انف كل مفتر دساس

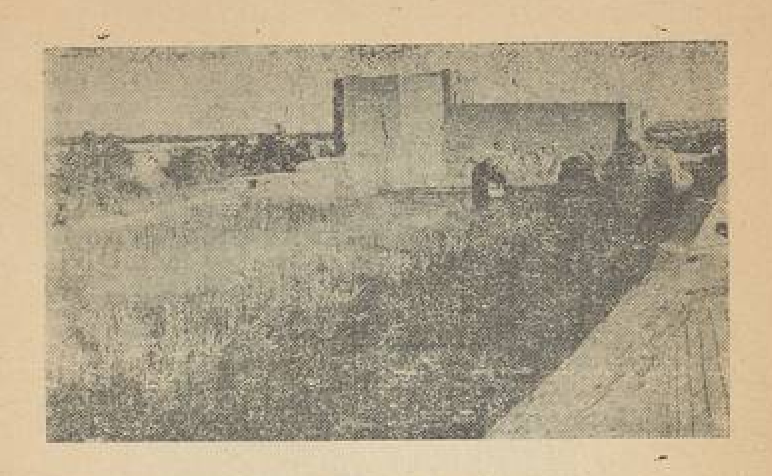
يحاول ان ينال من اصالته الشعبية ، وهذا هو الذي جعل الغنـــاء
به خاصابالاعراس والمناسبات السعيدة ، ويكفي البهرزاوي معزة للاشقياء
أن ضبط ايقاعه الذي يلازم غناءه من وزن (اليگرگ) ومن انغـامه
الابراهيمي والحسيني والمنصوري الخ ..



يامن تصلي ع النبي تربح

●

واذا كان ختام كل حديث مسكا ، فليكن المسك الذى نضوع به اجواء حديثنا هذا ، الكلام عن شقاوات جيلنا ، فقد كان ذلك الجيل آخر مظهر من مظاهر الحياة الشعبية الشيقة التي تربط الجيل الحاضر بالجيل الماضي ، حيث كان ابناؤه آخر من مارس اعمال الفتوة بآدابها ورياضتها ، فهم اليوم من شذرات المجتمع البغدادي - مثقفين وأميين - الذى تقف أمامه (الفتوة العربية) فخورة بما انجبت ، حيث لم تكن لهم في صدور شبابهم ما للماضين من مواقف تقتضيها المغامرات ، سوى ما كانت تقتضيه اسباب التفاخر والمباهاة . وقد شهدتهم وانا صبي ادرج ، يمارسون الفروسية ، ويلعبون الساس ، وكانت فروسيتهم تتجلى بأبهى مظاهرها في الاعياد حيث ينطلقون زرافات ووحدانا الى حلبة السباق بالقرب من الباب الوسطاني ويسمونها بـ (المنطرد) فيستقبلهم هناك اصحاب الجياد ، فيستأجر كل واحد منهم جوادا ويشتركون في سباق ودي لطيف حتى ينتهي بهم (الطراد) الى ساحة قريبة من باب المعظم حيث يجلس الوجوه والشيوخ على أرائك شعبية هي الاخرى ، تسمى



باب الوسـطاني

يقع في الجهة الشرقية من جانب الرصافة وكان يسمى قديما باب الظفرية ـ باب الطلسم ـ او باب الحلبة وهو الباب الوحيـد الذى بقيت عليه كتابة عباسية وقد اتخذ منه اليوم متحفا للاسلحة •

بـ (التخوت) وينبري اعظم الجالسين مقاما فيمنح الفائز بقصب السبق جائزة نقدية ، ولصاحب الجواد جائزة أخرى ، وهكذا ••• ولما كان الصبيان ممن يتشوقون الى التظاهر بمظاهر الرجال ، فقد كانوا يمتطون ظهور الحمير بانواعها والشقي (الوكيح) منهم كان لايقبل الا الحمار الحساوي المخضب جبينه بالحناء • وقد انقرضت هذه العادة مع الاسف ولم يبق من آثارها شيء اليوم الا في بعض المحلات الشعبية التي لم تزل على سليقتها الاولى في الحياة•

ولقد شاهدتهم أيضا ـ واقصد بهؤلاء اقراني ـ يقومون بواجبات الخدمة في المناقب النبوية التي كان يقيمها الموسرون من أبناء المحلات احتفاء بالمولد النبوي الشريف في الثاني عشر من ربيع الاول لكل عام وفي مقدم شهر رمضان المبارك وفي المناسبات السعيدة الاخرى ، كذلك لاتخلو مجالس العزاء من وجود هؤلاء الفتيان حيث يضمخون اجواء هذه المجالس بطيب العود والبخور ويتبارون في تقديم واجبات الخدمة للحاضرين من ابناء المحلة وغيرهم من ابناء المحلات الاخرى خصوصا في المجالس التي تقام احياء لذكرى الحسين عليه السلام .

◉

وكما كان الاقدمون مولعين بالموال وغناء الموال ، فكذلك وجدت اقراني مولعين بـ (العتابة) وهو من انواع الشعر الشعبي وبحره من بحور الشعر (الوافر) واشهر الناظمين بها رجلان احدهما يدعى (حمادي الجاسم) من عشيرة الجبور) ، والثاني : (عبدالله الفاضل) من شيوخ (عنزة) ثم ذاعت وانتشرت في بغداد وفي مدن الشمال والغرب ، وقاعدة نظمها على نوعين الاول يتألف من أربعة أشطر ثلاثة منها متحدة القافية . ومجنسة بالجناس التام شأنها في ذلك شأن الموال والشطر الرابع يختم بألف وباء ساكنة وتجيء زائدة على الوزن كقول بعضهم في الرثاء :

تهزهز يالحد وانفض ترابيك

عزيز الروح هل نايم ترابيك
لفانه العيد واعوني ترابيك
تهنه يا ترف واحنه بعذاب

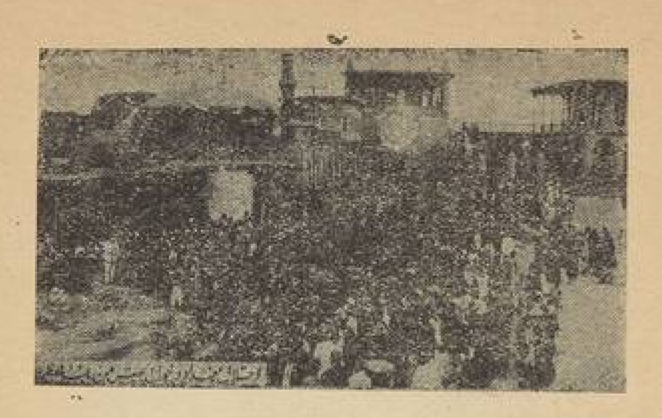
أما قاعدة الثاني فهي كقاعدة الاول غير ان الشطر الاخير بختم بالف مقصورة واحيانا بالف ممدودة كقول بعضهم :

ابات الليل جن بحشاي چانون
عفه عل حاجبه مجرور چانون
يزرع الگلب ما يرويه جانون
كود آذار بسنين السخا

●●●

واكثر ما كانت تغنى العتابة في حفلات الاذكار التي يقيمها المتصوفة والمتشبهون برجال التصوف واصحاب الطرق الصوفية في التكايا او المساجد او البيوت التي ينذر اصحابها باقامة (الذكر) في المناسبات المختلفة ، فكان فتيان جيلنا هم الذين يغنون (العتابة)بانخراطهم في حلقة الذكر بعد الاستئذان من شيخ الحلقة . ويقوم اصغرهم سنا بواجبات الخدمة وملاحظة المجلس ، فاذا حدث لغط ما في احدى الزوايا، او ارتفع صوت بعض المتكلمين من الحاضرين ينبرى احد هؤلاء فينادى بصوت جهورى رخيم :

– تربح .. يا من تصلي ع النبي تربح .. اشارة الى ان الكلام قد يؤثر على رجال الحلقة وان المقام محتشم ويوجب السكوت



باب المعظم قبل أن يهدم

ومكانه معروف وكان يسمى قديما باب السلطان وقد انمحى من الوجود ولم يبق الا اسمه ••

والاصغاء •••وهي طريقة شعبية اخاذة وتقابلها بالمجالس الاخرى عبارة •• صلي ع النبي ••

وعلى ذكر العتابة فقد ظهر في مطلع جيلنا اناس يغنونها في المقاهي، وقد أخذني المرحوم والدي ذات ليلة من ليالي رمضان الى مقهى كانت تقام على طول سوق الهرج في الميدان ، وكان يغني فيها المرحوم سعيد عكار والد المغني المعروف عبدالجبار عكار الذى نسمعه مساء كل يوم خميس من محطة الاذاعة •

وكما امتاز الموال بالقوة والابداع في النظم ، كذلك امتازت العتابة بالرقة والحرقة معا خصوصا عند سماعها في ساعات الذكريات

اوفى لحظات التأمل الوجداني .

ولما كان من متممات الغناء في العتابة : الربابة ، فقد تذرع بها (الغجر) في تجولاتهم وفي مضاربهم بين القرى والدساكر ، لانهم يجيدون العزف على الربابة .

وفيما يلي ثلاث نماذج من العتابة لعبدالله الفاضل مفاخرا بعشيرته عنزة قوله :

هلي ما لبسوا خادم سملهم

او بجبود العده بايت سهمهم

الناس انجوم وانه اهلي سملهم

وكل نجم الزها عشوى اوغاب

وقوله :

هلي يا زهرّة العربان من صوف

ولا جزوا ذبيحتهم من الصوف

هلي يا بيضةٍ نزلت من الصوف

وكلمن ضاكها ما ظنه طاب

وقوله :

هلي شالو وخلوني بدرهم

او خلوني چما الهايم بدرهم

متى تضوى على ليلى بدرهم

او تعز الظلام أمن الضوه

وللبيت الاخيرة قصة مؤثرة : هي ان الشاعر وقد كان كما قلنا من شيوخ عنزة قد اصيب في أواخر ايامه بالجذام ، وكان من عادة البدو ، اذا اصيب احدهم بهذا الداء يتركونه وحيدا ويرحلون عنه الى مكان قصي لكي لاتمس احدهم العدوى • وهذه عادة بدوية متأصلة وهم يعمدون الى الرحيل وترك المريض وحيدا لخلو البادية من وسائل الطب ، فلما تركوه بقي كلبه الى جانبه وابى ان يضعن مع الضاعنين وفاء لصاحبه المريض فقال الشيخ عبدالله مخاطبا الكلب الذي دمعت عيناه واسمه شير :

هلك شالوا على مكحول يا شير

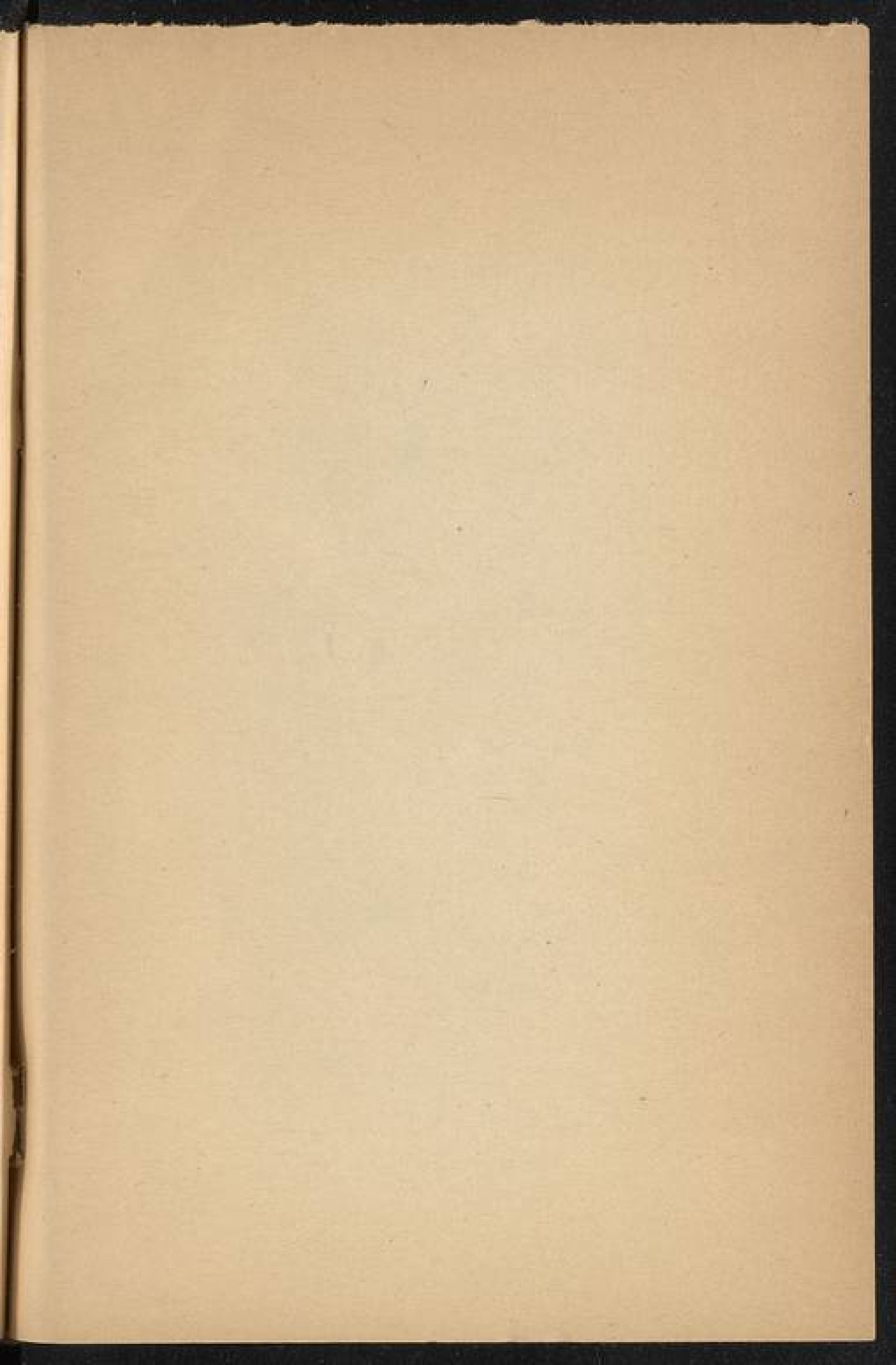
وذبولك اعظام الصيد يا شير

لو تبچي بكل الدمع يا شير

هلك شالوا على حمص وحما

ولولا ضيق المجال وخروجنا عن صلب الموضوع • لاوردنا نماذج أخرى من العتابة ••

وهكذا كانت الحياة تجري على غير ما تصبو اليه النفوس في ذلك العصر الغابر ولظلم سادته وعدوانهم على الشعوب الرازحة تحت حكمهم الاسود ، وكان سببا مباشرا لظهور لاشقياء •



ابراهيم بن عبدكه

لم يجل بخاطر ابراهيم بن عبدكه وهو يعيش أيامه الرتيبة في بساتين وحقول قرية (العواشق) من أعمال قضاء المقدادية ، انه سوف يصبح علماً مبرزا من أعلام الاشقياء ويكسب صيتا داويا يجعله مضرب الامثال في أعمال البطش والقوة والعنف لولا مقتل أخيه عبد حسن في غضون سنتي ١٩١٦-١٧ في تلك القرية • فوجب عليه أن يثأر له طبقا للتقاليد العشائرية الموروثة في بعض المدن وفي الارياف بصورة عامة ، فان الريف لايرحم القاتل ولابد من أن يقتل ، وهكذا وطد العزم على قتل (جواد) قاتل أخيه عبد ، وتأهب للامر •

وظل يتحين الفرص ويبحث عن جواد حتى عثر عليه في احدى محلات باب الشيخ ، فصوب على صدره النار وقتله في الحال ، ثم امتطى صهوة جواده وفر هاربا الى بعقوبة • ولكنها نهاية لبداية مأساة مروعة فقد جاءت الانباء من بعقوبة تفيد بان ستة من رجال الجندرمة قد قتلوا نتيجة لمقابلة وقعت بينهم وبين ابن عبدكه ، ومنذ ذلك الحين أصبح غريما للحكومة تطارده في أي ملاذ يأوي اليه •• ولكنها كانت في كل مرة لاتظفر منه بطائل •• ثم تعددت جرائم القتل التي كان يقوم

بها هذا الشقي البائس ، حتى داهمه بعض الاشخاص المتنكرين في قرية العبارة ، وكانوا ثلاثة استطاع ان يقتل اثنين منهم بعد ان صوب عليهم النار ولاذ الثالث بأذيال الفرار ، وكان أحد هذين القتيلين نجم الزهو العزاوي الذى لفظ أنفاسه الاخيرة وهو يودع قصة استشهاده الى ولده الصبي سهيل .. وقصة حرمانه من عطف والده ، وقد كانت القصة الاولى تتألف من كلمتين لاغير همس بهما في اذن ولده (قتلني ابراهيم) وصعدت روحه الى السماء .

وطبيعي أن السلطة قد تأهبت للامر ، أكثر من ذي قبل فان من الاهانة بحقها أن يقتل رجالها الاقوياء على يد هذا الشقي المغامر الجريء الذى ظل مختفيا عن أنظار الجدرمة حتى فاجأه المرض وهو في قرية (خرنابات) فلما علمت السلطة العثمانية بذلك أرسلت قوة كافية من رجالها الاشداء فقبضت عليه وألقت به في سجن بعقوبة تمهيدا لمحاكمته .. غير انه وبعد عشرة أشهر استطاع أن يفر من سجنه ليستأنف اعماله الاجرامية حتى سقطت بغداد على يد الانكليز سنة ١٩١٨ .

وذات يوم قدم قطار كركوك النازل الى بغداد وهو يقل قوة بريطانية ويقل الى جانبها السياسية الانكليزية المعروفة (مس بيل) وعند وصول القطار محطة شهربان داهمه بعض الرجال المدججين بالسلاح وتغلبوا على القوة واسروا المس بيل ، وعند ذاك قدم ابن عبدكه فاستقبله الرجال بما يليق من استقبال رئيسهم ، فلما شاهدت المس

بيل حفاوتهم به احتمت به فحماها وأوصلها الى حدود بغداد ثم تغير الامر !..

ظل ابن عبدكه يتخفى عن أنظار حكومة الاحتلال وهي تلاحقه وتطارده ويشاء القدر أن يأتي اليه بمن يهمس في اذنه بان ابن عمه محمد دارا قد قتل لثار قديم فوقعت الهمسة عليه وقع الصاعقة واعترته حمى شديدة اضطر بسببها وبسبب تضيق الخناق عليه أن يفر الى المحاويل وفي ١٤ حزيران ١٩٢٤ وبينما كان طريح فراشه حضر ثمانية من رجال الشرطة واحاطوا به من كل جانب فلم يستطع مقاومتهم واستسلم للامر الواقع فقبض عليه وارسل مخفورا الى بغداد واجريت محاكمته وصدر عليه الحكم بالاعدام شنقا حتى الموت ، وقبيل تنفيذ الحكم ظهرت مس بيل ، وتدخلت حتى خفف الحكم الى الاشغال الشاقة لمدة عشرين عاما ، وخرج من السجن سنة ١٩٣٦ بعد انقضى فيه اثنى عشر عاما .. وعطفت عليه الحكومة فعينته مراقبا للآثار في بابل .

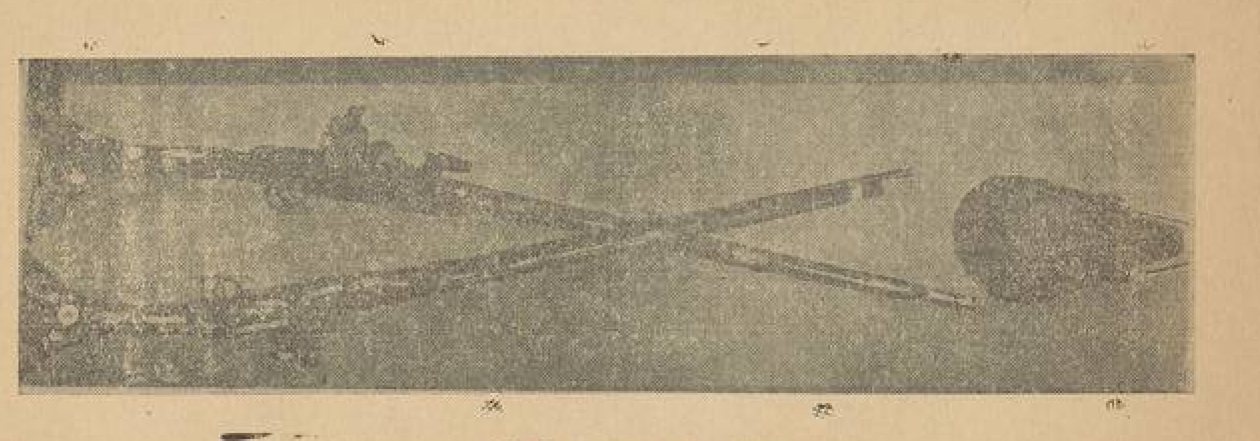
وسلخ في بابل ثمانية عشر عاما كلها خوف وقلق لايفهم مما يحرسه من الآثار والكنوز الثمينة الا انها المهمه القفر ، لايكاد يخرج من داره الا ليدخلها فقد وهنت نفسه وطار قلبه شعاعا ، لانه كان ولاشك يعلم بقرارة نفسه انه لايزال (مطلوباً) وان كان يجهل لمن ؟..

وفي ٥ ايلول سنة ١٩٥٤ وقد بلغ سهيل من عمره الثلاثين سنة قضاها يتيما تشتعل في قلبه قصة ابيه (قتلني ابراهيم) . وجد ان

الفرصة قد حانت لاطفاء هذه الجذوة اللاهبة في قلبه فذهب الى الحلة حيث يسكن ابن عبدكه واطلق عليه النار ثأرا لابيه واتماما لقصة يتمه التي طالت ثلاثين عاما .. ولما نقل ابن عبدكه الى المستشفى سأل عن قاتله فقيل انه سهيل بن نجم الزهو فارتجف وصرخ (ليش احنه ماتوافينا بعد ؟ آني قتلت ابوه وعمامه قتلوا ابن عمي ثم لفظ انفاسه الاخيرة .

وهكذا اسدل الستار على حياة ابن عبدكه الذى اصبح مضرب الامثال في عالم الاشقياء .

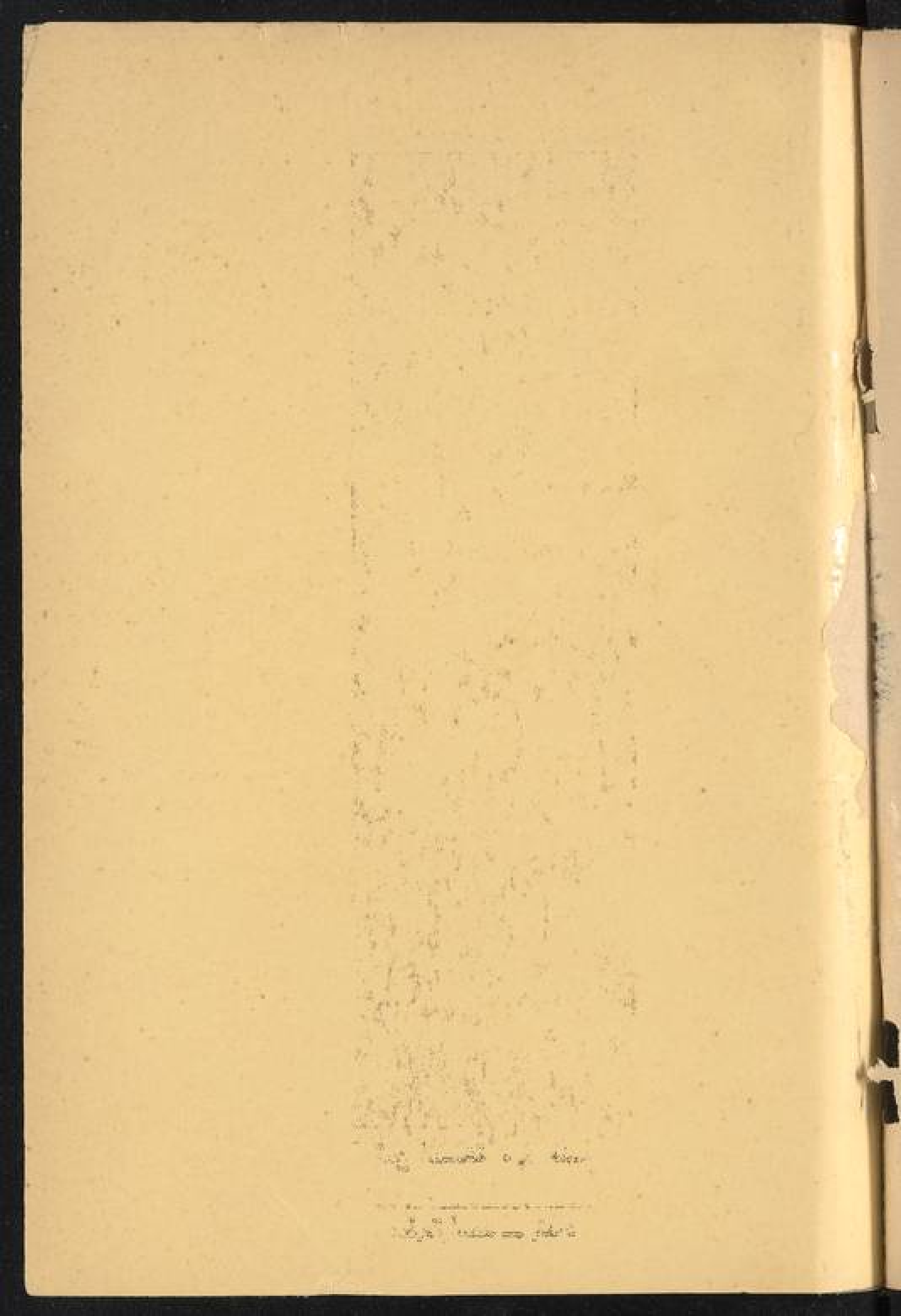
ولم يقع اختيارنا لجعله مثالا للاشقياء الا لكونه آخر من قتل من أشقياء الجيل الماضي .

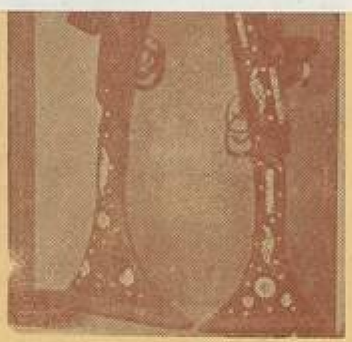


بندقيتان من المارتيلي والقباغلي

ملاحظـــة

١ ـ لقد وقعت بعض الاخطاء المطبعية التي فات تصليحها على المصلح مما لا تفوت على القارىء الكريم فيرجى المعذرة .





ثمن النسخة ٨٠ فلساً

مطبعة أسعد ــ بغداد

